الرشح الفواح من حكايات الملاَّح

(نصوص سردية)



عبد الواحد عرجوني

عبد الواحد عرجوني

الرشح الفواح من حكايات المَلاَّح

(نصوص سردية)

الرشح الفواح من حكايات المَلّاح

(نصوص سردية)

الرشح الفواح من حكايات الملاح

(نصوص سردية)

تأليف: عبد الواحد عرجوني

رقم الإيداع القانوني: 2012Mo1191

الترقيم الدولي: 6-010-31-9954-978

الطبعة الأولى: 1433هـ/2012م

مكتبة الطالب/ وجدة

مهداة إلى أميمة

قال صاحب سقط الخاطر:

"ولا تكن كمن قيل فيه "متتايعا في العنود"، "لهجا بالمعاندة"، مؤثرا القيل والقال، مستمرئا المجاذبة والتحايل على الناس وسلب أرزاقهم. ولا تكن كصاحب الحوت؛ إن واتتك المودة تبرأ منها، أو كصاحب زليخا؛ إن حاصرتك الصبوة تبخسها الزاد وتخلف الميعاد. وكن كصاحب العصا لما عصى. وإن رأيت أنك لست مالكا ما ملكوا، ولا محصلا ما حصلوا، فاعلم أن مثلك مثل من تمكنت منه الدهماء فقيدت أوابده، وصارت نفسه معيرة في الآفاق، وأغصانه معفرة في الإملاق. وإن نال منك الوجد منالا، فتيقن أنك كاللهب في مهب الريح، والريح في فم الوادي، وفم الوادي كَلِف بالعوادي، وهذا متم القول الهادي، جُعِلتُ فداك."

من كتاب " زاد الأنيس في مفاكهة الجليس"

الذيل والتكملة

قال:"ومنهم من تقول علينا بغير ما قلنا، وأضاف الباء إلى العين والعين
إلى النون والنون إلى الياء، وكل ذلك ونحن نصرخ
وننكر ونقول هذا والله ما سمعناه لا عن أجدادنا ولا
من آبائنا، وما هو إلا من عجينكم وخبيزكم
وطبيخكم يا أحفاد العماليق، تأرضتم،
وأبدعتم بدعات وضلالات،
والله يحفظ. الله
يستر".

1- باب البين وقيل العين:

ذات يوم. ذات يوم. وأنا بين خرز وفرز، وتلميع وتجميع وتصنيع، إذ بسيدة ذات خمار أسود تطلب، وتلح على طِلْبتها، أن أخرز لها خفا، ما حسبت ولا خمنت ولا ظننت، أنه سيودي بي إلى ما أودى بي، أنا الذي امتهنت الخرازة في سن مبكرة. هذا المخرز اللعين ابتليت به وأن ابن عشر، وها هو يودي بي وقد راكمت سبعا من

مثلها أعشار. وما فتق يوما فتقة، ولا أفسد رتقة، إلا بوسع أو بضيق ما أردت ورغبت ورغب صاحب النعل عن رضى، وها هو يوسع من العين الطِّلْبة، إلى ما زاد عن البغية، فجعله خرعا. وحين أقبلت ذات الخمار، وأنا بين بين، طلبت غير ما خمنت؛ رؤية العين دون الخف، ثم رؤية الخف موشح بالعين، ما أضاف إلى حيرتي حيرة، وزاد من ارتباكي، وجعل أيامي البيض سودا، وما ألفت تزاويق العصر، ولا كان لي بها سابق صنعة، وزادي من التطريز ضرب الجلد بالخيط أردفه المبضع، وسد الثقوب، وإشاعة المداس بين الناس، لا أتجاوز، في ذلك، حفظ الأسافل دون الأعالي. أما أن أطرز عينا على ظهر خف، جعل المخرز اللعين فتحته شقا، فذلك والله مما شق علي وأوقعني في حيرة من أمري، وأثقل على نفسي بهم وغم زاده إصرار صاحبته على ما تم الاتفاق عليه بالتمام والكمال، وإلا عليَّ سد الإنفاق، وما ملكت وأهلي ما يساويه أو يدانيه.

وإذ أبديت عجزي، وانكفأت أبسط أعذاري، وأجعل من الأهل والعيال أوتادي؛ أستنكف كثرتهم وفتكهم بالزاد مهما زاد، أسب صغيرهم وألعن كبيرهم، وأستصرخ الفتق الفتاق على البطن التي رمت بهم إليَّ وعليَّ، حتى صرتِ إلى ما صرت، رق قلب صاحبة الخمار، كما بدا لي أو توهمت، فقالت: عليك بتوشيح، إن لم تطرز عينا حولاء حوراء،

لها سعة مقلتها في المقلة، ولها بياض الحدقة من بياض بشرتها، وما رأيت رأي العين ما دون النقاب، أما أن أتجاوز الحرمة وأطلب رأي العورة، فهذا محال. فسألتها، وما دريت توشيح صنعة الخرازة، وأنا ما صدقت، أتمه أم أقرعه؟ فأرجعت لي صاع الاختيار، ما أفقدني الرشد وأفقد ميزاني العيار. قلت: لي غصن ولك غصن. قالت: لك المطلع ولي الدور. قلت: لي الأسماط ولك القفل. قالت: نجعله مخمسا أقرعا.

جاء في محضر الضابطة القضائية؛ إن الظنينين اعترفا بوقوع تحرش تلاه عض متبادل، وعراك بالأطراف العليا والسفلى، نتج عنه فقء العين اليسرى للمسمى العامري، وكسر الفك السفلي للمسماة هنانة أو منانة أو ،ربما، حنانة. قال الشاهد من ذوي عدل: الخطأ وقع في الاسم بسبب سهو الراقن، أو ربما بسبب عدم وضوح الرؤية، لكن اتضح من خلال ما تم تجميعه من أفواه الشهود، ومن المحضر الأول، رغم أنه يناقض المحضر الثاني، وهذا يخالف ما جاء في المحضر الثالث، وكما جاء في المحضر الرابع، ربما أو كما أو لعل وعسى، أن اسم الظنينة، بإضافة الرسم العقاري، ونسخة من رسم ولادة جدتها من أبيها وبعض النسخ الكاملة لكل أفراد العائلة للمقارنة والمشاكلة والمشابهة وما خلا ذلك وما جاور، هو ميمونة الجنانة، وأنها كانت تحاول النصب على الجاني المتهم بدوره بالتحرش على السيدة المصونة، ومحاولة الاغتصاب بالعنف

المؤدي إلى كسر الفك وإتلاف سنين مذهبين، واسمه كما ورد في المحاضر السالفة، العامري دون زيادة ولا نقصان أي "حافية"، مهنته خرّاز بالوراثة أبا عن جد، وبما أن الخطأ كان عارضا للأسباب السابقة، فقد ارتأينا إثباتهما على وجهيهما السابقين، وهذا ختم وتكملة حكاية الجنانة أو الهنانة أو الحنانة، وما جرى لها مع المسمى العامري الخراز المهنة.

2- باب المكابدة:

جاء في أقوال المرأة التي ضبطت متلبسة بالتهم المشار إليها أعلاه:
أنا ميمونة الجنانة المشتغلة بالجنينات، والاشتغال إرثي وميراثي عن العامري زوجي المشمول برحمة الله، وامتناعي عنه امتناع عن طلب الرزق، وفي ذلك هلاكي ومعصية خالقي، وإيذاء لروح زوجي في مقامه العلوي، وهذا معلوم، ودينه عليَّ الإخلاص في محبته وصون عرضه وفصله ونسله وحسبه ونسبه، وله عليَّ في ذلك عهدُ الألفة وطول العشرة، وهاكم حكايتي عليَّ منها بالذيل وعليكم بالتكملة.

ذات يوم. ذات يوم طغى حره على قره، وازبد لهيب ريحه من مجامر جنان الحاج العامري، بعد عودته من زيارة مقام الرضوان في غفوة معهودة له على رأس كل حول، والآباط لواحة بالبقبقات، رشاحة

للبركات، تسمع الأصم الغافي، وتدعو الرائح أن آت، وتعظ الزاهد العفيف، بشد الإزار إلى الوشاح، وسحب الخفين إلى الخلف بالدك والركل رميا، وحل الأوراد وردا وردا، ثم المشي بإسراع، والركض باتباع، فالجري والنط، فالغطس في بِرْكَة بَرَكَةِ المكابدة. هذا ما كان سيرويه شاهد عيان كتم الشهادة، إلى حين انكشاف الغمة. أما خالتكم ميمونة الجنانة، فقد غشي عليها من الوجد، ولما استفاقت يا سادة يا كرام، وجدت أحشاءها أرضا محروثة. قال الشاهد الذي كان قد كتم الشهادة: احتنك الحاج الأرض وأتى على أخضرها ويابسها. قال الحاج العامري: الأرض الميتة لمن يحييها.

3- وفي غير هذه الأبواب:

أقسم صاحب الزق، أنه رأى، لكن ذاكرته لم تسعفه على تذكر دقائق الأحداث، لأنه مجبول على عدم الاهتمام بالجزئيات التي يعيرها سفلة القوم ورعاعهم آذانهم وعيونهم ويلوكون خرذلها ويجترون ويعيدون، والذي توهمه بصفة العموم لا بصفة الخصوص، يتمثل في العباءة والأقدام، العباءة كانت عباءة الحاج العامري، والأقدام يمكن التخمين بأنها كانت أربعة... ومع أن الشيخ يكاد يتذكر شكل الأقدام فإنه نسي إن كانت حافية أو منتعلة. والمؤكد أن إحدى عينيه مصابة

ببعض العمش، أما العين السليمة فكانت مصابة بإرهاق، بسبب ضرس لعين أطار الرقاد من ليلته السابقة للحدث الرئيس، وبذكر الرئيس يصاب الرجل بعياء في أطرافه وبارتعاش شامل في جسده. أما هل كان واقفا يرى ما رأى، فإن ذلك ما لا يمكن الوثوق به، والاطمئنان إليه لما سيأتي ذكره من حالات وحالة وحال.

حالات عدم الوثوق: الرجل مصاب بخرف، وتختلط لديه الوقائع التي تقع له ولغيره بالأحلام والتوهمات والرؤى، ومعروف عنه المشي نائما، مما يرفع عنه الحرج والقلم معا، وبذكر القلم، يؤكد ويسارع إلى الخلط بين الأقدام والعباءة والأقلام، فتصير عنده الأقدام أقلاما والعباءة أوراقا، وما بين العامري ومنانة دواة ومورد، ولم يكن له، بحسب قوله، متسع من الوقت لإحضار خيط يساعده على التأكد، وإلا صار قذافا هتاكا للمحصنات وأعراض الناس، وهذا ليس في مقدوره ولا في معهوده، بحسب ما يروى ويحكى ويقال من الروايات والمرويات وأسانيد الأشياخ، وما هو مبثوث في كنانيش التراجم والمعاجم والبرامج التي ذكر فيها شيخ شيوخ الزق، كما ينعت أو صار ينعت.

الحالة: لا يميز صاحب الزق المشار إليه أعلاه ، إن كان هو الشاهد أو الفاعل أو المفعول، ولا نملك إلا أن نقترح بهذا الخصوص،

عدم الاختصاص، لعدم توفرنا على مختصين في مثل هذه الحالات، وعليه فإن الاحتفاظ بالشخص السابق ذكره يبقى من دعامات الحفاظ على الأمن العام إلى حين ظهور الحقيقة ناصعة ساطعة، وتبين الأسباب والدوافع إلى التصريح، والتقدم لأجل الشهادة الممكنة والمحتملة، وكل ما ملكت يمينه.

الحال: يقول الشاهد بتفصيل، وينكر أحيانا بتقصير، أن المسمى العامري قيد حياته، واراه التراب قبل سنوات خلت، ويؤكد، بنفس وعين وكل وكلا وكلتا، أنه هو من واراه التراب، وهو من غسل الميت، وتأكد لديه مما لا يدع مجالا للشك مغادرته دار الفناء إلى دار البقاء، وما أضاف الطين بلة، وبلبل وشوش وزاد حتى أفاض في البلبلة والتشويش، ادعاؤه احتمالا، أن يكون الشخص الذي رآه يوم الحادث شخصا واقعيا ومحتالا طماعا ، واستبعد أن يبعث الحاج في هذه الدار، وإنما الذي فعلها تنكر في عباءته وخفيه ليقوم بالفعلة المنسوبة للمجهول المعلوم، لأن حرمه الحاجة، ونشير إلى أن هذا المستجد بتوكيد، أي وسم منانة بالحاجة، يستدعي بحثا مفصلا في النسب والحسب والنعوت والصفات، إن لم يودِ بنا الأمر إلى استطلاع عام. قامت المذكورة، كما يدعي الشاهد الضنين الظنون، بتوزيع عباءات الحاج مباشرة بعد مواراته التراب على طلبة الجامع الكبير، وربما حدث

أن تسربت بعض هذه العطايا إلى ذوي المنفوس المريضة المجبولة على الشرور، فحدث ما حدث، إما بغاية الإجرام، أم بقصد وعلم المتصدقة والمتصدق عليه في إشباع نزوة معلومة، لا قدر الله، فكان ما كان، وأنا لا أجزم ولا أنفي، وحسبي الله ونعم الوكيل والسلام.

4- باب ما جاء على لسان الخراز:

اسمي الكامل العامري بدون زيادة ولا نقصان. أصرح بشرفي، أني لم يسبق لي أن عرفت شخصا بهذا الاسم غيري، ولم يسبق لي أن توجهت إلى إدارة أو مقاطعة أو دار جماعة لاستخلاص وثيقة رسمية تخص هذا الاسم، ولم يسبق لي أن تقدمت بأي طلب في الموضوع، كما لم يسبق لي أن غادرت هذا الحي ليلا كان أم نهارا، وهذا الركن ورثته عن والدي رحمه الله، وقد ورثه بدوره عن جده وجده ورثه عن والده ، وهذا ورثه عن والده وهكذا، وقد حدث لوالدي مثل ما حدث لي، فنحن نتاورث المحامد والمقابح والأحداث والوقائع والمصائب، وأنا فخور لكوني نسخة منسوخة من المشمول برحمته، كما كان هو نسخة مطبوعة شكلا ومضمونا من سلفه الصالح إلى غير رجعة، زمن كانت صناعة الأحذية بالدوم، فالخرق وبقايا إطارات عجلات شاحنات الاستعمار، وعجلات الاستقمار وجلود الماعز، ولم يسبق لي أن

تزوجت لأمرين؛ أولهما رغبتي في وضع حد لهذه السلسلة التي لا تتناسل إلا وتتناسل معها المصائب، وثانيهما كون الفقيه الذي كلفته والدتي بوضع "التقاف" لي لمنعي من الزنى قد توفي دون أن يتمكن غيره من حل المسألة، فبقيت عالقة، وبقيت أنا معها معلقا إلى ما شاء الله، وإن شئتم القيام بالتجربة فأنا رهن الإشارة مع منانة أو مع غيرها.

وأقف هنا، أنا الموقع أسفله كاتب هذا التقرير، لأدلي بملاحظة تخص الموضوع، وهي أن هذا المجرم المدعو العامري يريد أن يفعلها مرة أخرى على مرأى ومسمع منا، ولا أخفي أني أشم رائحة مكيدة، ومع ذلك، أغلق القوس أو المعقوف لمواصلة تصريح الظنين المدعي والمدعى عليه والمطالب بالحق المدني، يقول: وما كانت أموري تتجاوز طلب اللقمة أسد بها رمقي في السبيل المهيأ لي في ذلك، أستسقيه من صلابة المخرز وليونة الخيط الذين لم أعاشر سواهما، وما كان بمكنتي ذلك وما كان سيكون. أما كوني متهما بتهمة حمل صفة الحاج، فهذا شرف لي، ولم يكن مما أحلم به حتى، لأني مبتور الأصل والفصل والعيال وصاحبة العيال، وقد رفع عني الحرج في ذلك، وهذا من فضل إدقاعي، وأنا شاكر حامد. أما السيدة التي اتهمتموني بما سلف وإياها، فلم يكن لي معها إلا ما كان وللأسباب التي ذكرت في المجمل، وإن سعت إلى ما يرضيها بسبب النعل المخروم أو المفقود، فأنا موجود، شرط .. القيام

والقعود. أما ما أذكره في المفصل، ومن ذلك التوشيح، فأنا أسحب الأقرع، وأجر التام، وأنشد المثمن عل وعسى، وما ذلك على صناعة الخرازة ببعيد المنال...

قال كاتب التقرير: وهذا قفل التقفية، كان لكم الذيل وكانت لي التكملة والسلام.

الرشح الفواح

دفع البشير بعربته اليدوية الصغيرة إلى أن برز له باب المقهى الرحيب، أناخ بها إلى مكان قصي في الساحة الخارجية المسورة بحائط وطيء، وانشغل بتحريك محتويات القدر متعمدا إحداث صوت يعلن عن مقدمه لهواة أكل الحلازين. أحس بخطوات ثقيلة تدنو منه اشتم من نخنخة مألوفة صاحبها النادل الفظ العنيد. فانشغل بترتيب أشيائه البسيطة من ملاعق وصحون، تبركا وتيمنا، وتهيؤا لطِلبة محتملة موفورة، تكون مفتتحا ميمونا، ومستهلا مرغوبا لبحر يوم يتمناه سندا من ريح عصفت بحظ أيام سبعة، أسْبَتَ العوز أيان مجراها في بحره، فاستلذ مرساه واستطابه، فتحولت جيوب سراويله، ميمنة وميسرة، سَخْسَحَةً مَلْعَبَةً ِ قفره.

توقفت الخطوات حين نتأ لناظريه مداسان يتجاوزان في عرفه مألوف الأطوال، وكبس الظل المنساح حذاء العربة كوريف صفصافة نأم الهواء، فأسحق ثقل الصمت ضرع صبيحة يوم ينذر مبتدؤه برغبة ملحاحة في إتمام العشر الأوائل إمساكا من صيف في وهج انبلاجه، والتسلل إلى الإدقاع من أوسع تخاريمه. ومرت هنيهة بالبشير جاوزت

عسرتها كل تصور في مكنته، إلى أن انكشف الظل عن صوت أشبه بالخوار صدع عن أمر بالانصراف من غير تأخير.

اعتذر البشير، أعاد غطاء القدر الذي كان قد أزاحه إلى موضعه، أغلق قناني التوابل بارتباك، ودفع بعربته بعيدا عن المكان تجاه محطة سيارات الأجرة. وحين اطمأن به المقام في رحبة ركينة، شرع قدر حلازينه الفواح للرائحين والغادين موزعا الفناجين والصحون على كل من صادف مروره آنئذ بالمكان، من غير مقابل مشروط، مكتفيا بالقليل الذي يكف عنه فلفلة مسغبة يومه إلى أن يأتي فرج مأمول، أمره عند علام الغيوب.

وفجأة برقت في قحفه كالبرق بارقة صفاء لم يع مصدرها إلا بعد لأي. استعاذ بالله من الشيطان الرجيم. حاول الانشغال عن مصدر الزلزلة بترديد المعوذتين وسورة الإخلاص. انهارت ممانعته أمام البياض الجلل. ارتعشت عيناه. عاوده الارتعاش. رفضت عيناه وما جبلتا عن إدامة النظر في الواضحات الفاضحات عن الانزياح تمردا. يا ألله! أخذ ريقه يسيح على جانبي فمه. ها العار! تعالت في الجو ضحكات مرحت في أحشائه، فذرت في حلباتها من كل جن أحمر براق حراق. سرت في خياشيمه أنفاس خالها قدت من ريح الجنة. دمعت عيناه. مرر بكم قميصه على جبهته مانعا العرق المتصبب من تشويش الرؤية. أصابه

ارتجاج فضح لهيب مكنونه، فشب احمرار أحس به حارقا تحت جلد محياه. حين لمح أحدهم يرمقه بطرفه، انحشر كأفعى ضبط خارج جحره، وانهدر في جوفه رعد مكنون يلعن أصل البلوى وفصلها، وانتبذت الهزيمة تتلوى ركنا ركينا من غوره تصدع بالعويل وتنفث في أصقاعه السم الزعاف. كانت عيناه قد تسمرتا على فخذين مكتنزين لقشتالية أربعينية فالتصقت بها كالغراء، فتراءت له الساحة حقلا من الأجساد العارية المنشورة على صفيحة مهيأة للشواء. ولم يجد أمام توجعه الدفين، وشَكَعِه المكين، إلا تغيير المكان قبل أن ينفلت الزمام، وتتطور الأمور إلى ما لا تحمد عقباه، فيُسحل سحل فتاك ضرغام.

في المساء. قرر الانتقام لهزيمته؛ اشترى لترا من الخمر الإسبانية المهربة، وقصد عريش القصب حيث ألف سلخ همومه، وإزالة الأدران التي يتيسر علقها بنفسه، ويتعسر محوها بالتي هي أحسن، فتستشكل وتتغول وتنحس وتشمخر وتستحكم، فلا المطاوعة والمجاملة تغنيها، ولا المصارعة والممانعة تفنيها، ولا المكاشفة والمصارحة تعنيها، ولا يجد البشير بدا من سرج شيطانه، وإطلاق ريح سلطانه، وإرخاء لجام سرحانه، فيتنقل من حال إلى حال. يفترش بعض أوراق القصب اليابسة، ويبدأ يشحذ منشار معجاجه.

جلس يشرب ويدخن. يشرب ويدخن ويلعن. يلعن الفقر. تمنى لو أن الفقر كان رجلا. أخرج من تحت إبطه نايا، وبدأ ينفخ فيه همومه؛ بدأ أول ما بدأ بصغارها وهلم صعدا. دمعت عيناه. بدأ احمرار داكن يغزو بياضيهما. في مكان ما من غور لحفه، اهتزت أوتار دف محموم كأنه حم على جمر نار جهنم والعياذ بالله. توقف لهنيهة يشرب ويدخن، و..و..ويلعن. ارتفع إيقاع الدف وتوترت أوتاره. امتدت الحرارة إلى باقي جسمه، فبدأ العرق ينز من مسامه. فك أزرار قميصه. توقف عن العزف حين بح الناي وامتلأ باللعاب. رمى به بعيدا لاعنا أصل القصب وصوت القصب وهواة النفخ في القصب ومحترفيه. أصابت أوصاله رعدة حين تذكر ضريح الولي "سيدي شعيب انفتاح" حيث بات يوما رغبة في تعلم العزف على آلة الناي. خاف من أن يكون قد أساء من حيث لا يدري. استغفر في سره، وقرر الإمساك عن عادة اللعن هذه التي ورثها عن أسلافه جاهرا بتوبته. أحس بقميصه حارقا، فنزعه ووضعه على رأس قصبة أمامه. يا ألله! صار البشير بشيرين! البشير في مواجهة البشير. اِرتفع اللغط، وحمى وطيس الجدال، واشتعل لهيب العناد وشب أواره، وعبق في الفضاء دخان الخلاف، فكان الرائي، وإن عن قرب، لا يستطيع التمييز بين البشيرين ولله في خلقه شؤون.

أحس البشير بأحشائه تتمزق. بدأ التمزق أولا من أسفل البطن، ثم أخذ يتصاعد حتى بلغ الحلق فصار غصة خانقة. مد يده إلى القصبة مصالحا مصالحا، فبدأ يفقد توازنه. تمايل، حاول الإمساك بالعربة. رفسها. وحين هوى القدر وانقلب وساحت محتوياته، انكب عليه يقبله ويعانقه. آ العار! آ رأس المال!. حاول حمله فلم يفلح. دفعه وتركه يتدحرج قبالته. قهقه. تبا لرأس المال هذا الذي أمضي يومي أجره وأف عليه. رأس المال الحقيقي هو الذي يجر صاحبه ويدفع به إلى الأمام وليس العكس.. هكذا. حاول الحفاظ على توازنه وهو يتمايل. دقات الدف ترتفع .. دز..دز..دز... صار رأسه حلبة جوق. نغمات ناي نافرة تصخب في جمجمته. فرج بين رجلين ليتجنب السقوط. أحس بتقلصات معدته تعصر المرارة والحلازين. خال بعضها بدأ يدب في أمعائه. فغر فاه، ومال إلى الأمام، فاندفع سائل أصفر من جوفه كالبركان. داهمه دوار شديد. أخذ القصب من حوله يدور. ارتفعت دقات الدف. ارتفع فحيح الناي وزغردت بحته. أخذ كل شيء من حوله يدور. يتحرك ويدور. يدور ويدور. ثم.. ثم .. فجأة.. الله أكبر! انقلب كل شيء رأسا على عقب. يا الله! صار كل شيء مقلوبا. بل إنه صار معلقا. البشير صار معلقا.. معلقا ومقلوبا. بل إنه يقف على رأسه. انقلبت الدنيا! صارت السماء تحته والأرض فوقه. يا الله كم هي ثقيلة

هذه الأرض!..لكن ما ذنبي أنا لأكلف بهذا الحمل؟ ما ذنب البشير ليكلف بحمل الأرض بأحيائها وأمواتها؟! على الأقل كان عليهم أن يرحموا ضعفه، وأن يخففوا عنه . ألم يجدوا غير الأرض لدفن موتاهم. الأرض لم تعد تتسع للأموات والأحياء. لكن يا البشير، هذه مسؤولية، أولم يتحمل المسؤوليات الرسل والأنبياء والمفكرون والفلاسفة و..و..؟ لا هذا افتراء. تحملها أيضا لصوص وأناس لا ضمائر لهم فعاثوا في الأرض فسادا..ومع ذلك كان عليهم أن يخففوا عني. كان عليهم أن يرحموا فقري وضعفي وجهلي، فأنا مقطوع من شجرة لا مباركة، ووحيد . لا يا البشير! أنصت هذا عذر غير مقبول. لا مفر من أن تقوم بواجبك. الواجب يناديك يا أخي .. ومع ذلك كان عليهم أن يخففوا عني، على الأقل، موتاهم. أنظر إنهم لا يكتفون بدفنهم، بل منهم يبني فوقهم قبابا، ويزينون، يزينون ويمقون حتى بما يحرم به الأحياء، وما إن تدخل مقبرة حتى تصدمك الفوارق، وتنتصب في وجهك قبور هي أشبه بالقصور، وأخرى كالفيلات يفوح من جنبات عبق الزهور المجلوبة من كل أطراف الأرض، وأنت تتقدم لن تشعر إلا وقدمك تزل في حفرة، أو يمزق حذاءك شاهد حاد فيدمي قدمك، على أقل تقدير، إنها الأحياء الشعبية حيث ينتشر البناء العشوائي للقبور، وتتشعب الممرات كالمتاهات. حاول البشير العودة إلى وضعه فاستحال عليه الأمر. زاد

من رعبه السواد الرحب أسفله. قدماه ملتصقتان هناك. لأول مرة يمنح فرصة تأمل هاتين القدمين اللتين حملتاه لكل هذا العمر. نظر إلى ذلك الأصبع النافر من مزق حذائه اليتيم. نبتت في ذهنه المشوش فكرة كالفطر، وبدأت تلح عليه. تكبر، تنتفخ، تمطط، وتلح. قرر الانتقال إلى التنفيذ مخاطرا. انحنى قليلا نحو الأعلى، قليلا، قليلا، هكذا، ثم هوى ممسكا بالأصبع بقوة. تشرررر.. مال وترنح في الفضاء، بقي معلقا برجل واحدة. هذا جزاء تهورك آ البشير. استسلم. هل هو الوحيد المعلق في هذه اللحظات، أم أن العالم كله سار مقلوبا ؟ أستغفر الله. لا يمكن للأرض التي حملتنا لآلاف السنين، وربما لملايينها أن تلفظنا هكذا بغتة..ربما ..تشهد آلبشير. هل فعلتها..لكن أين أثقالها؟ السراط..السراط...لا يمكن التأكد من شيء مع هذه الظلمة . لا. ألم تجد هذه الأرض بما وسعت ورحبت سوى هذا البشير ليحمل أوزارها؟ لو أنه فقط يستطيع التأكد من شيء واحد. تبت رأسك آلبشير! وفي لحظة ما دوى في الفضاء صوت مرعد، وارتطم جسم ما بمؤخرة رأسه، لم تتحمل معهما رجله الوحيدة ثقله، فانزاحت من مكانها، وهوى البشير في الفضاء الأسود الرحب خفيفا خفيفا، كريشة في مهب ريح، فتأكد له مما لا يدع مجالا للشك أنها الساعة.الساعة. وسرى في الجو صدى همس مبهم.

العجب

الذي أجرى الطوفان

وقال: "واعلم أن رؤية الماء؛ إن كان راكدا فهو غم يحل بك
وبعيالك،حفظك الله، وإن كان جاريا على هيئة ونحو ما، فخذه على
ثلاثة أوجه: إن كان يسيل بين أصابعك فهو رزق يضيع منك،
خلف الله عليك
أفضل منه، وإن كان في واد وأنت تنظر إليه ولا تستطيع
الاقتراب منه خوفا من الغرق، فهو خير عميم
يحل بجارك، ولن يمسك منه قليل أو كثير،
جعل الله لك فيه صدقة، إن كان جارك
ممن سقط منه شيئا مما قاله المتنبي
في سيف الدولة، وإن كان الوادي
يصب في البحر، فأمّ إن غرقك
وشيك، ليس في البحر
بالضرورة فإن كان
فزت
بالشهادة، بل البحر الآخر الذي يأخذ ولا يعطي لا خيرا ولا سلاما،
لك السلامة بعون الله".

(انتهى كلام صاحب سقط الخاطر مما جاء في باب المنكوب والمحبوب
وما قيل في جريان الماء وركوده.)

ماذا حدث؟ سرى السؤال على الألسن مسرى النار في الهشيم، ولم يكن بمكنة أحد أن يوقف الأمر أو يضع له حدا، إلا إذا تدخل أولي الأمر. وبما أن التقارير تصل دائما متأخرة؛ تقارير المخبرين المنتشرين كالجراد في الأزقة والمقاهي والساحات. هكذا .. وبالسهولة التي ..وبما أن الأمر صار يهدد بنوع من الانفجار، وأولي الأمر يخافون من الانفجار ولو كان في قنوات الصرف الصحي. وربما لم يكن الأمر بالبساطة التي يتصورها البسطاء.. البسطاء والرعاع لهم تصورات يغلب عليها الاعوجاج. وحفاظا على الأمن العام؛ أمن هؤلاء الرعاع الذين أجبرونا باعوجاجهم أن نكون في خدمتهم إلى حين، وربما قد حان هذا الحين.. وبما أن الأمر يتطلب وضع استراتيجية للتدخل، وهذه تستدعي معرفة الأسباب والدوافع والدواعي وغيرها مما يثقل على القلب واللسان، فإن اللجوء إلى بناء فرضيات يوجب استنفارا خاصا للطاقم البشري المتخصص في الإشاعات.

تصل التقارير تباعا، بعضها يستعجل وبعضها يستبطئ وبعضها الآخر يستنجد، وبعضها يستوجب مختصين في الخطوط؛ الأمامية والخلفية وما شابه مما غلظ وتكرش من أصناف النسبة، وتطلب أمر ترتيبها تصاعديا تارة، وتنازليا أخرى زمنا وجهدا لا قبل للمكلفين بهما؛ سواء تعلق الأمر بفرزها أم بتركيب مضامينها، أم بإعادة صياغة

محصلاتها في جذاذات خاصة مرتبة بدورها، ومكتوبة عناوينها بلون مغاير تجنبا لكل ما من شأنه أن يشوش الأمور، أو يفتح بابا للبس من أي نوع كان.

كان هناك مؤشر واحد تتفق حوله المحصلات إلا ما ندر، وهذا "ما ندر" خلق للمكلف بالبؤرة الملتهبة رأسا للفتنة، وذرى في تحفه نثارا من لظى الإشارة، وخبل العبارة، ما جعله يجلس إلى مكتبه الفخيم يتابع تضخم الملفات على المكتب، وانهيال التقارير. ومما زاد في الخطل إلى متمه أو يزيد، ولا خاطر لديه لمستزيد، رنين الهواتف؛ الثابتة منها والمتنقلة.

كان المكتب عبارة عن مجمع للتقارير، وهذه لا تكف تتناسل..لا أحد يعرف ماذا حدث، والكل يدعي معرفته بتفاصيل الحدث.

يقول تقرير السيد "سين" من منطقة شين: "في مستهل الوباء أو مبتدئه، بحسب الحالة، وقد رأينا أن الضرورة توجب الاختصار المفيد وإبعاد غير المفيد، ولم نشأ التصرف إلا فيما اعتبرناه حشوا، ونحن في مسيس الحاجة إلى ربح الوقت، والإيجاز أفيد من الإطناب في مثل هذه الأمور. وخلاصة ما حدث كان على النحو الآتي: قام أحد الرعاع، وهو شخص معروف بما يأتي: تهاجمه في فترات معلومة، وأحيانا تكون

مجهولة، وفي فترات متقاربة أو متباعدة، بحسب الأحوال والمتوفر، نوبات حادة، ويحتمل أن يكون وراء تصرفه جهات يقال إنها داخلية، ويقال إنها خارجية، وهذه الجهات لم ترضها بحبوحة حاضرتنا العامرة. قام الشخص المذكور بدورة حول الساحة العمومية الرئيسة لشين، وهو يردد عاليا وعلى رؤوس الأشهاد بأنه رأى عجبا. كان يصرخ ويشير إلى جهة ما، وأمامه، في فترات. في البداية تبعه بعض الأطفال كما جرت العادة وهم يرددون خلفه صراخه وعواءه منغما ملحنا مدوزنا على مقام عجيب غريب لم نألفه في إيقاعاتنا ولا في ألحاننا، ولا عرف عند أسلافنا. اِنضم إلى الجمع بعد دورات بعض السوقة وبائعي السجائر بالتقسيط، وما لبث أن لحق بهم بعض اللصوص وذوي السوابق ممن كنا قد أمنا توبتهم، ولحق بهم بعض المعطلين الذين وجدوها فرصة سانحة للمطالبة بالشغل. لحقت بهم أيضا بعض الجمعيات، وبدأ الجميع يدور ويدور؛ من الناس من يبكي، ومنهم من يضحك، ومنهم من يصرخ في مكبرات الصوت، ومنهم من يصدر أصواتا غريبة، ومنهم من ادعى رؤية العجب، ومنهم من يطالب برؤيته...آخر المستجدات تشير إلى التحاق بعض النساء بالطائفين؛ ومنهن العرائس الحديثة الزفاف، والمطلقات.. أخبار أخرى مستجدة تتحدث عن تحول الجموع إلى طوفان. الأخبار تتوارد متسارعة. خلت الدور من ساكنيها والمؤسسات

العمومية من العاملين، وأغلقت المحلات. الأمواج البشرية تتضخم، والأصوات تهدر كالرعد...وخلاصة الكلام، أصرح بشرفي، إن الأمر صار عجبا عجابا. كأن الرجل سحر الجموع، صار الكل يردد خلفه لغطه، ومن النساء من أخذت تزغرد، ومن الأوانس من بدأت تختار لها زوجا، بعض الفنانين حملوا معهم آلاتهم ومزاميرهم وطبولهم..الحركة..عفوا..توقفت في هذه اللحظات. امتلأ المكان عن آخره. بدأت الأنظار تتجه إلى أعلى. تداخلت مؤخرة الطوفان بمقدمته. بدأ التحرك نحو أسطح البنايات. الناس يتحركون ولا يتحركون. صار الرجل محمولا على الأكتاف..يا لطيف يالطيف..."

التوقيع: خديمكم المرتضى الأرضي السيد سين.

تقرير السيد حاء:

"الأخبار الواردة علينا إلى حد الساعة تؤكد تحركات مشبوهة. لم نتمكن من معرفة الأمر بدقة بعد، والمنطقة الأمنية تعاني من انفلات، عفوا انغلاق فضيع في القنوات الرئيسة رغم أننا قمنا في السابق بجولة استطلاعية وتفتيش دقيق. يرفض الناس الانصياع لأوامرنا بالتوقف والامتناع عن تفريغ مثاناتهم وأمعائهم والاستعانة بالصوم وهو بهم أليق، ولصحتهم أهم ولهمتهم أفيد. قمنا ، بمهابتنا، وعينا لهم مساحات

مخصوصة لقضاء الحاجات، ونصحناهم - أي والله - بالامتناع عن الإكثار من أكل العجائن. قلنا وقلنا وأعدنا القول وأطلنا واستطردنا، ثم قصرنا وأوجزنا، ولا أحد اهتم بمقولنا. قلنا التأمل التأمل هو الحل؛ اقترحنا على الناس ممارسة رياضة التأمل، وقراءة الطالع، والنظر إلى الماضي، ونسيان الحاظر، واستشراف المستقبل، ولا أحد اهتم أو انشغل بما قلنا. وما زاد الطين بلة ظهور شرذمة تدعي تمثيل السكان والتحدث باسمهم، هؤلاء اشترطوا ما لا طاقة لنا به، وطالبوا بإحاطة البيوت بالصبار، تخيلوا المدينة تتحول إلى بساتين من الصبار المشوك، من سيجرأ على مراقبة الداخلين والخارجين؟ من سيعرف ماذا يحتمل أن يحدث خلف هذا الصبار ومن ومن؟ بعضهم طالب باستقدام شركات متخصصة في تحويل الفضلات إلى سماد، فأجبناهم بحكمة الأجداد فما انصاعوا. ونخبركم سيدي أننا منشغلون ومنشغلون بالتفاوض مع هؤلاء..والسلام..والسلام..والسلام."

التوقيع: السيد حاء

فجأة انقطعت المكالمة. جرب الرجل جميع الهواتف فوجدها خارج التغطية. فتح زجاجة. عب منها جرعات. نظر إلى الملفات. اختطف ملفا. تامله برهة ثم صرخ: رأيت عجبا..هذا عجب. وجرى خارجا من المكتب، ثم من العمارة، تبعه بعض الفضوليين في البداية يستطلعون. انضم إليهم بعض الباعة المتجولين، ثم أخذ الجمع يكبر ويكبر حتى صار أشبه بالفيضان.

طرة على حاشية المستفاد

وقيل:

"طرة على حاشية المستفاد في خبر مبتدأ آل تيس ومن جاورهم من العباد"

- كنت فقط أريد أن أقول... قال قريني.

- أنا أنصت . قلت.

- هل تعرف شيئا عن حكاية التيس الذي قيل...

- ومن أين استعرت هذا اللفظ؟ قاطعته. وانشغل عني بمطاردة الذباب الذي تجمع حول الكأس أمامه، ما أراحني من بعبعته، فطفقت أستعيد بعض ما علق بذاكرتي من مقطعات حكاية انفرط عقدها، فلا إلى البداية اهتديت، ولا إلى النهاية انتهيت.

حاشية المبتدأ:

قال صاحب المستفاد: ومن المصنفات التي ذكر فيها منشؤهم ومبتدأ زمانهم، مخطوطة انفرد بها أحد النساخ، سقطت بعض وريقات منها بين يدي رجل صادفته في إحدى سفرياتي، رفض الكشف عن هويته، فسلمني إياها، مقابل مقدار من المال، على شرط كتمان سرها. وبما أني لم أقو على ذلك، وقد جبلت على غيره شرها، بعد ما شغلني أمرها، ورأيت العجب في فحواها. زين لي أبليس، لعنه الله، كشف أمرها. وعملت لحول أو يزيد على تنقيح ما جاء في رزمة منها، موصلا ليلي بنهاري، طمعا في عطاء أو جزاء إحدى الدارين، وكان المحصل المستخلص المستفاد الآتي:

أنا العبد الفقير إلى رحمة الله (حذف). في يوم من أيام الله، والمزاج رائق. قلت لنفسي، وما ألفت منها إلا غما تخزنه على مدار العام، وهما لا تنفك تكنزه طوقا من حوَلِ الأيام: أستضيف عابرا أدخِل بفك عقدة مسغبة يومه حسنة أو عشرا من أمثالها، أو مكرمة، في كناشي المسود بعوادي طيش شباب ودعته بعد لأي ورفض وتسويد بياض أبي واستكبر الخضاب، حتى عركني بيأسه، كما عرك المعتمدُ ابنَ عمار بفأسه، حفظكم الله وإيانا، وستر عيوبنا.

وحتى أجتث من سويدائي طمعا قد يستفيق، أو ردة عن عزم عزمته، اقتنيت دجاجة استوفت وزادت عن مأدبة الضيف والرفيق. وقبل أن أطلب من ربة الدار، التي استوزرت على دخيلتي، ونهبت داخليتي طبخها، أو طريقة إعداد افتقدتها آن كنت أنعم بعزوبيتي، اخترت أن أستهل، تجنبا لحرب محتملة ضروس، لم أستعد لها كفاية، وما عدت قادرا على خوضها، وما كنت، وما عهدت في تلك الساحة من نفسي إلا هزيمة تليها أخوات لها، حتى صارت تلك الشرذمة من كناسي الجيوب - وقد خلتهم عيالا في صفي في العزائم حين أنفحهم، وأي منقلب ينقلبون حين أنهرهم- ينعتونني بـ"أبو الهزائم".

وقبل الذي جر علي ما لم يكن في الحسبان، نويت حلق ذقني الذي طال زغبه، ونفرت شعيراته، وما عادت بسببه ربة الدار تحتمل النظر إلى وجهي، بعد أن كان التملي به عزيزا، علني أسترضيها قبل الاستفتاح، في ما أنا عازم عليه من عمل يشذ عن باقي أعمالي، ويخرم عادة الفر التي دوزنت عليها إيقاع خطوي ذهابا وإيابا إلى وكر الناب ذاك، حتى لازمت الاستعجال، وتعودت حصر الإبصار، وكسبت درجات عليا ستكعب أو تضعف في الصفر بعد ذا الاستهلال.

عود على بدء الاستهلال أو ما اتفق على وسمه بالنطحة التي عجلت بظهور آل تيس:

استعجلت حلق ذقني، فعاكستني الخلة بالاسترسال في التزين أمام المرآة بادعاء ملكيتها المطلقة لما هو خاص بالتاءات، فتجاهلت. ولعل ذلك ما استحليته مما وافق هوى في نفسي أشبه بهوى مقام الراست وقد سامرته لليلتي الماضية؛ أبغي منه محو بعض ما علق بخاطري من سواد، جريا على آفة ممارشة المنغصات حين تتكاثف بسريرتي، بمداعبة المقامات؛ أستقطرها وأستحلبها بعض الترويح، فأخالني فراشا ينتقل من "السيكاه" إلى "الدو الكبير"، أستزيد وجد هذا، وأستملح تقاسيم ذاك. أشرق أحيانا وأغرب أخرى، ولا أتركها إلا حين أطفئ لظى المهجة، واستعيد رائق البهجة. وحدث ما لم يكن في الحسبان.

الحدث الذي لم أخله، ولم أتوقعه، ولم يكن في الحسبان:

كنت قد بدأت الحلق من أعلى مؤجلا قنة الذقن إلى حين، وعلى الحال التي كنت، أطلت الخلة ومن خلفها رهط العيال يستطلعون ما استغربت. قالت وقالوا: "في بيتنا تيس حتى خلت من دارنا عنزة". احترت بعد تعجبي من حسن توظيفهم التعالق أو ما قيل عنه التناص. إلا أن الأمر استفحل وثقل علي إلى أن تجاوز مبلغ تحملي، وبخاصة،

حين بدأ الرهط في التوقيع على لحن النشيد الوطني. ثارت وطنيتي! ولم أدر إلا وأنا أبسمل وأحوقل وأهلل وأكبر وأدفع برأسي، لم أتبين متجهه؛ أخلفا كان أم أماما. الله اعلم. وما تلا ذلك إلا غبش تتوسطه صورة متزعمة الشغب مطروحة أرضا في دمائها تسبح، ومن حولها الأتباع يتصايحون (حذف).

تعليق (1): وهذا كان سبب إطلاق نعت الجزء وأريد به الكل، وتفسير ذلك أنهم أطلقوا لفظ "التيس الناطح"، وقيل "النطاح"، وهو النعت الذي وصف به الرجل بسبب فعلته، وأريد بالصفة ذريته من بعده التي نسبت إليه...

انتهى خبر مبتدأ ظهور آل التيس في حاشية المستفاد.

طرة الخبر: وفيها بقية من سيرة الداعية وفتوحاته وأعماله الخارقة في البر وفي البحر:

كان الحادث الذي عرفتم بداية لتاريخ جديد، قسمه المهتمون إلى قسمين بينهما فاصل زمني تفنن الرواة والقصاصون والأخباريون والنسابة في بيان تقسيماته وتفريعاته، فجعلوا في كل قسم أقساما، ولكل تفريع تفريعات حتى اختلطت الأصول بالفروع وبالأفخاذ، والمتفق عليه بنسبة؛ حد التاريخ التيسي الخاص، والذي يليه حد التاريخ التيسي العام.

جاء في الخبر: خرجت أنشد مستقرا لي إلى حين، حتى انتهى بي الأمر في مقهى من مقاهي المحطة الطرقية، إلى أن جن الليل أو قرب. وبعد أخذ ورد وتخمين وضرب الأخماس في الأسداس، قررت أن ألعن غيا حسبتني واقعا فيه، وأعود إلى الدار أصلح ذات البين، أو أجبر خاطر التي كسرت أنفها النطحة الملعونة. وما إن وضعت المفتاح في الباب الخارجي، حتى أضيئت الأضواء، وسمعت خطوات مختلطة تنزل درجات السلم بعجالة، فاستبطأت أستطلع، فإذا البيت في حالة استنفار قصوى، ودمدمات اللعنات والسباب تتلاحق، فقر في نفسي أن أمضي الليل خارج عش الزنابير هذا عل وعسى. واتجهت أجر الخطى جرا إلى مقهى الحي، وفي نيتي تقليب الأمور واستشارة آن العجز لمستشير. وما إن تجاوزت عتبة المقهى حتى تناهى إلى سمعي الوسم الخطير. حسبت الأمر، في المستهل، يخص غيري، لغوا أو سهوا، .لكن الهمهمات علت، وصار النعت يقتحم أذني واضحا: "ها التيس..جا التيس..إنه حقا يشبه تيسا..يعيش التيس..يسقط التيس". اشتد الخلاف بين الرواد الذين انقسموا بين مؤيد ومعارض، وخفت مما لا تحمد عقباه، ومن فتنة قد أتهم بإيقاظها، فقررت الرحيل إلى غير رجعة.

قال: وهنا انقطع خبر الرجل الذي قيل عنه الجد الأكبر لآل التيس.

حد التاريخ التيسي العام: وبدايته في رواية، أن الرجل كان شخصا قاسيا على الأصحاب والأقران، وفارسا لا أحد يستطيع مجاراته في الألعاب البهلوانية التي كان يقوم بها على ظهر فرسه الشهباء؛ لا يمل ولا يكل من القفز والنط والصعود والنزول في أوضاع أحدثها لنفسه، حتى أنه كان ينام على ظهرها بدون حلس، وكان دقيقا في الرماية لا يخطئ طريدة، إن بالعصا أم بالحجر، تفنن في مجمل ذلك كله، وأبلى بلاء حسنا في كل الوقائع التي شارك فيها . وهذا ما توفر لنا عن الأعمال البرية مع إهمال الأخباريين للأعمال البحرية.

تعليق (2): في ردنا على سفه الكلام السابق، وما تقول به المدعو صاحب المستفاد، نؤكد نحن أبناء المدعى عليه المشار إليه في المتن السالف، وحفدته، إن كل ما جاء به هذا المدعي لا يتجاوز كونه ادعاء باطلا لا أساس له من الصحة، وقد ثبت لدينا مما لا يدع مجالا للشك طمعه، كما أقر بذلك بنفسه وبعينه، في نيل بعض رضا من يريد التقرب إليهم بنشر الترهات والأكاذيب على أحد أعلام هذه الأمة ورجالها وعلمائها وأشرافها ، وها نحن نصحح ونوضح ونبين خرف المخرفين الخائضين في ما لا يعنيهم، وما سكتوا عن ذكره بادعاء الحذف

زورا وبهتانا، بالإضافة إلى السند المقطوع والمجهول. وما هو ثابت في صحائفنا ومخطوطات أجدادنا وما هو مصنف في خزائنهم العامرة، وما جاء في رواية صحيحة السند تنتهي إلى جدنا الأكبر طيب الله ثراه، وأسكنه فسيح جنانه، كما هو مدون في الكناش الخامس من المخطوط السادس من المجلد السابع من سيرة العلم الأغر، الخنديد الأبر، التيس الناطح النطاح، قاهر قراصنة البحر وهازم صناديد البر، وفيه متمه..حذف...

تحول قريني إلي بعد أن أجلى الذباب عن الطاولة، وقال:

- إنك تجهل المستجدات.
- وما المستجد؟ قلت مستغربا.
- عاد الرجل إلى أهله بعد تدخل بعض المحسنين.
- والإمارة التيسية أو السلطنة أو ما شابه؟ قلت.
- عن أي إمارة أو سلطنة أو مملكة أو جمهورية تتحدث؟ قال.

لذت بالصمت خوفا من أن أتهم بخرف على حين غفلة وغرة، وحاولت الابتسام في وجه قريني. نقدت النادل عن كأس الشاي الذي لم أشربه، واتجهت صوب محطة القطار الجنوبية.

الرأس والعتمة

العتمة تغطي الشارع كإزار امرأة من زمن ولت ألفته. الرجل يسرع الخطى كشبح يبحث عن مخبأ. ما الذي جعل الرجل يسرع هكذا؟ وأنا بدوري لماذا أقف هنا في هذه الزاوية أراقب الشارع؟ وما شأني والرجل؟ راقبت الرجل إلى أن اختفى. ظهرت في رأس الشارع امرأة تهرول في الاتجاه الذي سلكه الرجل، تحمل شيئا في يدها اليمنى لم أتبينه. تحاول المرأة تثبيت لحاف يحف برأسها، أو ما ظننته كذلك، أو خلته. حركاتها توحي بالقلق، وبأن أمرا ما دفعها إلى الإسراع. كانت مشيتها غير منتظمة؛ أحيانا تهرول، وأحيانا أخرى تبطئ. تنحني لتأخذ شيئا سقط منها ربما، أو وجدت ما يستحق أن تتوقف من أجله، وهي على الحال التي كانت عليها من الإسراع أبطأت. لماذا أبطأت؟ ثم لماذا كانت تسرع؟ وما شأني أنا؟ ولماذا أقف هنا أراقب؟ المرأة تبتعد وتغيب في رأس الشارع، وأنا قابع هنا، أنتظر شيئا دفعني حدسي إلى انتظاره. لم يدم انتظاري طويلا؛ فما إن هممت بإشعال لفافة تبغ، حتى ظهر فجأة شبحان تلفهما العتمة كسابقيهما. الشبحان يتجهان في الاتجاه

نفسه. أمسكت عن إشعال مؤخرة اللفافة، وتتبعت الشبحين، يمسك أحدهما بيد الآخر يكاد يجره، والآخر يتمنع ويقاوم، ثم يستسلم أخيرا. يقول الأول: هيا يا أبا الوليد. ويقول الثاني: دعني عنك يا إمام. مكثت أرقبهما إلى أن غيبتهما العتمة. أشعلت اللفافة، وبدأت أمج طرفها بتلذذ، وأنفث دخانها في الفضاء كمدخنة سيارة قديمة وأراقب. أنفث وأراقب. فكرت في أنه يجب أن أتخلى عن هذه الآفة. هي سبب وقوفي هنا في هذه الزاوية. أمسكت طرفها وأنا أهم بدعسها، وإذا بأصوات تتناهى إلى سمعي. رفعت بصري أستطلع، فرأيت مجموعة من الناس يهرولون في الشارع، يجرون، يتوقفون، يتجمعون، ثم يتفرقون، يسرعون ثم يبطئون. واستغربت. إنهم يتجهون في الاتجاه نفسه الذي سلكه سابقوهم. راقبتهم إلى أن غابوا في رأس الشارع الذي لفته العتمة.

حين هممت بالانصراف، في الاتجاه الآخر، أبت قدماي مطاوعتي، ومنعني إحساس غامض من الحركة. خلت الشارع كله يتحرك في غير الاتجاه الذي أردت. استسلمت بعد تمنع، وأطلقت ساقي في الاتجاه نفسه، ورأيتني، من المكان الذي كنت قبل حين قابعا فيه، أغيب بدوري في العتمة.

ووجدتني أتدافع ..أتدافع وأشرئب لرؤية ما يتدافع الناس من أجل رؤيته.

- إنه رأس. قال أحدهم.
- رأس مقطوع. صاح آخر.
- رأس مقطوعة. صحح الآخر.

فطفق الرجلان يتخاصمان؛ أحدهما يذكر والآخر يؤنث، وانقسم الجمع إلى فريقين، كل فريق يناصر صاحبه. ومن الزاوية التي كنت أقبع فيها قبل حين، رأيت أبا الوليد يحاول التوفيق بين الرأيين، ويقول: قال البصريون. ثم يعود فيقول: قال الكوفيون. ونسي الناس الرأس المقطوع أو المقطوعة إلى حين، واشتد خلافهم حول التذكير والتأنيث.

كان هناك رجال أمن من أجهزة مختلفة؛ منهم من يحمل العصي، ومنهم من يحمل الرشاشات، يمنعون الناس من الاقتراب من شيء مغطى بإزار أبيض تعلوه بقع دم. حاولت الاقتراب فوجدتني أتقهقر. التدافع يشتد والناس يتقدمون، ثم يتأخرون ويتراجعون. تقدم إلى وسط الحلقة رجل خلت فيه الشبح الذي رأيت في المستهل، وهو يطالب بالكشف عن الرأس، لأن ابنه لم يعد مساء أمس. هاجمت امرأة عنصرا من القوات المساعدة تتهمه بقتل ابنها والرجل يحاول اتقاء ضرباتها، انفلتت منه واتجهت إلى الإزار تحاول كشفه ، أسرع رجل بالزي المدني يسد عليها الطريق، يمسكها من شعرها ويجرها إلى خارج الحلقة.

• الكافرة بالله. صاح رجل.

• ارجموها قال آخر. إنها تستحق الرجم.

• إنها القاتلة. صاح أحدهم.

عمت الفوضى في الجمع.

• اكشفوا عن الرأس.

• إنها رأس امرأة.

• لا بل هي رأس رجل.

وبدأ الناس يتخاصمون، وانقسموا مرة أخرى، يذكرون ويؤنثون، ويتخاصمون.

ومن الزاوية التي كنت قابعا فيها قبل حين، رأيت حجة الإسلام، يخطب في الجموع. يقول: فإن كان ذكرا. ثم يعود فيقول: وإن كان أنثى.

أحسست بألم حاد في رقبتي.ثم..ثم.. رأيت قطرات دم تسيح على صدري. ولما حاولت الانكفاء تدحرج شيء من أعلاي وسقط أمامي. ثم بدأ الشيء يتجه إلى وسط الحلقة في اتجاه الإزار..إنها رأسي! ها رأسي تتدحرج ككرة وتتجه إلى الإزار.

• ألم أقل لكم إنها رأس مقطوعة.

• إنه رأس مقطوع. صحح أحدهم.

وحين دلفت (دلف) الرأس تحت الإزار تحولت الأنظار نحوي. ورأيتني أنسحب منكسرا. وما إن أدرت ظهري للجمع حتى أطلقت ساقي للريح في الاتجاه المعاكس. ورأيت الناس يجرون خلفي ويلوحون.أحدهم اختطف الرأس من الإزار وبدأ يلوح بها.

- هذه رأسك. خذ رأسك يا صاحب الرأس.
- آجي أبو راس. صاحت امرأة.
- إنها رأس رجل. صاح صوت.
- لا بل هي رأس امرأة. قال آخر.

وسمعتهم يتخاصمون حول التذكير والتأنيث. حين بلغت الزاوية التي كنت قبل حين أقبع فيها، توقفت أسترجع أنفاسي. أخرجت لفافة، أشعلتها بعصبية، وبدأت أمجها وأنفخ الدخان وأنا أقول : علي أن أتخلى عن هذه الآفة. وأعود فأقول لا لن أتخلى عنها. وحين هممت بالانصراف، رأيت الأشباح يسيرون في الاتجاه المعاكس للأول؛ يتجمعون ويتفرقون، يسرعون، ويبطئون، يهرولون ويجرون. ورأيت في ما يرى النائم شبحين يتوقفان.. يتجادلان.. ثم يستأنفان سيرهما. يقول أحدهما: يا أبا الوليد الفتنة .. الفتنة. ويقول الآخر: يا إمام..الفتنة الفتنة. فتوهمت فيهما صاحبي التهافت.

جُماع البياض والريح

من أنا، ومن أكون؟ حين لفظتني أيام الضنك إلى هذا الدوار، آليت على نفسي؛ على تلك يا الأمارة! النسك والاعتكاف، وأن أوفي المساءات ترديد آي الله. لكن الصبوة حين تتأبى الزمام، وتنفلت توقظ الأرض الموات. وكان يوما لانفلات الصبوة. قلت هذا يوم صبوتي أداعبها، فكان ما كان يا الريح ! ولولتِ ووليتِ ومعك البياض.

في متاهات الغبش الذي أنا واقع فيه تقولت، وجرى مقولي مجرى الريح. وإن شئتم -أعزكم الله- قلت بالتسهيل والتمهل والتقريب، ومن دون تمثيل سهل المنال، أو تشخيص بعيد بالتأول ينال، أو إعمال عقل وتقليب وجوه. ألومني على ما فات أم على ما هو آت؟ أقرع وأزبد بالتقريع، ولا ينفع مع الأمارات اللوم ولا التقريع. فما كان كان، والذي صار لا تجدون من يعطيكم إياه مما خف أو ثقل إلا باحتمال، وأنا بدوري ما دريت كيف سقت هذا المساق.

في مألوف أيامي الماضية، كان الصراع قد احتد، يراوح بي بين الإمارة والأمارة، خلت الإمارات. صدقوني. أمسكت بالإمارات

وسعدت، سعدت لأنه دخل في ظني أني صرت أمير إمارة. أخذني التوهم، وتمكن مني الظن، فصار يدخل بي من مدخل، ويخرج بي من مخرج، ويهفو بي - أي والله- من مقصود إلى غير مقصود، كأني صنو من ارتقى به المقام درجات فوق درجات، وذهب بي التوهم إلى تصورات مخصوصة هرولة فهرولة ثم خببا، ولم أكن أخالها هرولة إلى مهلكة، والمهلكة معقودة على ما ذهب من تصوري أني ملاقيه.

سايرت هياجي ولم ألجم ما تحت جلبابي، وألجمت بدله ما فضل في قحفي من عقل، وكان لي مما فضل منه بقايا من سراب. وكان ما صار في علمكم أني ملاقيه.

- الفقيه..نوض الفقيه !

كان الصوت يتردد في عالمي الذي كنت فيه واستمرأته، كأنه رجع صدى متقطع. وأنا أتماوت..أبتسم وأتماوت..استحليت المقامات..أبتسم في أعماقي. أعود إلى نفسي أحررها..أتمرد على التشرنق..الشرانق أمزقها مزقا في قرارتي. أتماوت بوأتمرد على رغبات التحويل والتلاعب بخلق الله. هم يتلاعبون وأنا أتلاعب. ولم أكن خلقتهم.

أنا الفقيه المعلوم الذي تنقاد له الرؤوس؛ رؤوس الصغار فيتفنن في التخطيط، يرسم على الصلعات الصغيرة ما شاء له من الحروف

والدوائر والخطوط. هي الحروف والخطوط نفسها التي كان يرسمها على ورق السكر لنساء الدوار تعلة، فينال مقابلها ما لذ وطاب من اللمسات والنظرات، وما شاء مما تشتهيه الأنفس من التمسيد.

اللمسات تلهب الجلد واللحم والعظم، فتشتعل النار بجحيما تحت الجلباب، يصعد دخانها زفرات وتأوهات وتألمات وحشرجات وزيادة. "ها خذ آآآلفيه"؛ قففا تكظ تينا مجففا ولوزا وزبيبا وبيضا، لا يزيد ما تحت الجلباب إلا لهيبا، آه يا نار كوني علي بردا وسلاما!

- آلفقيه..آنوض آلفقيه .
- أظنه مات.
- انه ما زال يتنفس.أَنظر.

وما جماع الريح؟ يا الريح! ريح طيبة ما سبق أن نفحت منخري اللذين ألفا نفح أكوام من مسحوق "الطابا"، حتى ما عاد لي لملء رئتي بالريح عن الشخير بديلا، فصارا يصدران شخيرا كأنه الخوار، يزداد ارتفاعه كلما ارتخت أطرافي في صحوي، وفي منامي الله أعلم. لكن يومئذ، عصفت بهما ريح كأنها محملة بمسك الجنة. "الواقعة" كانت ملجئي ومهربي آن تعصرني الفتنة ويلتهب جلبابي. بها أواجه المتقولين من مدبري "الشرط". لكن الريح، وتلك الريح، يا الريح! تكالبت علي، في عز حر أجلف، تباريح الريح والالتهاب، حتى ما عدت أحتمل لبس

الجلباب، لكن ما العمل؟ وما ذنبي؟ إنه ذنب اللوز والزبيب والتين حطب لناري، وها هي تحرق الجلباب وما تحت الجلباب وتحرقني. والريح؟ وذلك البياض؟ أكان بمقدوري أن أتجاهل أو أتماوت مثل ما أفعل الآن. آه ! قهرت ملوك الجان وقهرني البياض والريح.

- يجب أن نقيم عليه الحد.
- لا . هذا ليس من شأننا. سنسلمه للدرك.
- الدرك سيطالب بالشهود، و"طلع وانزل"، والمحكمة، وستتهم بالضرب والجرح، والاعتداء على حقوق الانسان. وربما خرج بريئا وصرنا نحن متهمين.
- وما العمل ؟ أخاف أن نكون قتلناه.
- يا جماعة.. يكفيه ما ناله.لكن علينا أن نتخلص منه بطريقة ما.
- اقترح أن نرمي به بعيدا عن الدوار قريبا من الطريق المعبدة، فإن مات حسب الناس أن سيارة صدمته.
- وإذا بقي على قيد الحياة؟
- أظنه سيفر على أربع، ولن يجرأ حتى على إلقاء نظرة خلفه.

تمنيت ألا يرموني وسط الطريق. كانت التصورات عزائي الوحيد، وملاذي أن أتماوت. قطعت النفس. لكن وقد علمتم بما تكدس من مسحوق "الطابا" في منخري، عدلت عن ذلك..حُمِلت..البياض

البياض..الريح الريـ..يـ..ح. وما البياض؟ وما الريح؟ هل أتاكم حديث البياض والريح؟ هذا جماع القول بالبياض والريح، مجمله يغني عن مفصله. والصبوة - جُعلتُ فداكم- تتأبى عن الزمام، وأنا كهل داعبته صبوة فأهدته الحروق والبروق، فاحترقتْ وأحرقته.

حديث البغلة

- أنا أسأل وأنت تجيب.
- لا أنا الذي يسأل وأنت تجيب.
- ليكن ما تشاء.
- لكن . عن أي شيء أسأل أو تسأل، وتجيب أو أجيب؟
- المهم. تتذكر ذلك اليوم؟
- وأي يوم من أيام الله؟ لا أستطيع تذكرِ، أو حتى عد الأيام التي أتذكرها، أو تتذكرها. ثم ألا تعلم أني أكاد أبلغ الخمسين، واضرب هذه الخمسين في عدد أيام السنة...
- لا..لا..لا أريد منك سرد أحداث كل هذه السنين. أنا فقط أسأل إن كنت تتذكر ذلك اليوم؟
- أحاديث الجمع تبغي، حيث أجمع، أم أحاديث السبوت، حيث تَسْبِت؟
- لا تحاول تغيير مسار الحديث. أنت تريد أن تجعل من حديث بسيط جدا، حديثا سياسيا.
- وما الفرق بين السياسة والكياسة والنخاسة...؟

- قلت لك. أرجوك لا تحاول التهرب، أو تغيير مجرى الحديث. أريد منك حديث البغلة.

- كيف أحدثك عن البغلة، أو عن حديث البغلة، وهل للبغلة حديث، أو هل هذا مقام الحديث عن البغال؟

- قلت لك لا تراوغ.

- ألم تلاحظ أنك تجعل منا اثنين في واحد، أو واحدا فيه اثنان؟

- الاختلاف رحمة يا أخي ولو كان في ذات واحدة. ثم أنت الذي بدأ والبادئ أظلم، كما يقال، وأنت من يحاول أن يجعل من الواحد اثنين.

- أترى؟ ها أنت تعترف. هل نحن اثنان في واحد، أم واحد فيه اثنان؟

- لنعتبر الأمر منتهى منه. أي أننا متفقان على هذا التزاوج، ولا يهم كنا واحدا أم اثنين، وحديث البغلة حديثنا معا أنا وأنت، أو باختصار نحن الذي هو أنا أو أنت، أو نحن معا أو نحن جميعا.

يقال، أو كأني القائل، أو كأنك أنت، لا يهم، أو كأننا معا، أو ربما قيل، أن متشردا، أو متشردين كنته أو كناهما معا. كنتم يا سادة يا كرام.

- ها أنت تجعل منا نفرا.

- المهم هو الحكاية يا أخي، ولا تعد لمقاطعتي.

- ...

- قلت، كأنكما بغلان تقطعان صحراء "قارت" أو "كرت" أو "شارظ".

- من فضلك حدد.

- قلت. دعني أواصل وإلا أضربت عن الكلام. وكف عن مجادلتي.

قلت: كأنكما بغلان تبحثان عن بغلة. ها "ميضار"، ها "الدريوش" ها "ياعاروي". وما بين "الدريوش" و"تزطوطين"، عثرتما عمن يدلكما عن بغلة، لا هي بيضاء، ولا سوداء، ولا شهباء، هي بين بين، والناس والسيارات والنساء والرجال والحيوانات تقطع الطريق السيار. هذا يسب هذا وهذا يكذب على هذا، وهذا يـ... هذا. والمنبهات، والزعيق والنعيق والصراخ؛ صراخ الناس والحيوانات. الناس من كل مكان، من كل المناطق، من الداخل، من الخارج، ومن خارج الخارج، ومن داخل الداخل، من الشرق، من الغرب، من الجنوب، ومن الشمال، والسيارات من كل جنس ومن كل لون، واللغات من كل نوع، و"الهندي" يباع على الطريق الذي كان سيكون سيارا وما هو بسيار ولا كان ولا سيكون، ولا هو بمعبد، كما كان، أو كما سيكون، أو يحكى أنه كان، مع الاستعمار أو مع الاستقلال، والناس يقولون هذا وأكثر، ويسبون...

- ألم تلاحظ أننا أصبحنا ثلاثة أس أو مكعب كما يقولون في الرياضيات.

- ها أنتم صرتم تفهمون في الرياضيات. ولكن. ألم أقل لا تقاطعوني.

- من حقنا أن نتدخل، نحن الجماعة وأنت الفرد، والجماعة تغلب السبع، زد على ذلك أنك لم تقصر حديثك عن البغلة، وصرت تدخل وتخرج في كلامك.

- من منحكم حق التعبير؟ لتعلما أو لتعلموا، أني أنبهكم لآخر مرة، وإلا أضربت عن الحديث الذي هو طلبتكم. قلت.. قلنا.. عفوا. قطعتم الطريق السيار الذي يقطع بدوره صحراء "شارظ"، إن شئتم التحديد، من شرقها لغربها، ومن غربها لشرقها. وجدتم من يدلكم عن البغلة. البغلة التي تتكلم أو تحدث الناس بكل عجيب وغريب، ولله في خلقه شؤون. وقد رأيتم العجب العجاب، ومن رأى ليس كمن سمع، وأنا بدوري رأيت؛ ها البغلة ها الشاة. وسمعت. نعم سمعت، وها أنا أحدثكم عما سمعت ورأيت، فأنا لا أنطق عن الهوى، فأنا الرائي والسامع وأحدثكم على هذا الأساس. قلنا: قطعنا الطريق السيار في اتجاه الجبل الذي لا شجر فيه ولا حجر. وكان ذلك سر إقبالكم على فاكهة "الهندية"، وتعرفون الباقي، حين فعلت فيكم أو بكم ما فعلت، وكدتم تصومون

.

دهرا لو لم أتدخل بعد أن عجز الصيادلة والأطباء، وأنا كنت المداوي. وهذا معروف وغير المعروف غير معروف عندكم ولا عند غيركم، ولا حتى عند العادي والبادي، وأنتم تابعوني على ما أقول إلى يوم الدين.

وها أنتم، يا سادة يا كرام، تلحون على سؤال ما سمعت وما رأيت، وأنا صاحب حقوق الصيانة والطبع والنشر والتأليف، ولا أحد بمكنته منازعتي حقوقي، وهذا تحذير يبلغه الحاضر للغائب، والغائب للحاضر، ولما بعد الغائب، واحسنوا الإنصات يرحمكم الله، ولا تلغوا، فمن لغا لا حياء فيه، ولا قطرة دم في وجهه.

قال محدثنا، الذي بيده كل الحقوق، وليس لنا مما أورثنا إياه، إلا حق إطالة الآذان، التي قال عنها مثل ما قاله عن آذان الحمار. قال: قطعنا تلك الطريق إلى ذلك الجبل في نصف يوم، ولما وصلنا وجدنا خلقا كثيرا. الكل مجتمع في ساحة مغبرة متربة كأنهم في يوم الحشر. الناس من كل حدب وصوب، منهم من يلعب "الضاما"، ومن يقشر البطاطس.. والنساء؟ منهن من يرضع الصغار ومن يرضع الكبار. والكهول؟ منهم من يغط في نوم عميق، ومن يتحدث عن مغامراته في الجزائر، أو عن مشاركته في الحرب الأهلية الإسبانية. والشباب؟ منهم من يتحدث عن الأوراق، ومن يتكلم في فنون العشق والتهريب و"الحريك" وأوراق الإقامة في إسبانيا، وحقول الطماطم، وفرنسا

وألمانيا ودول البنلوكس، ومنهم من لا تشغله لا هذه ولا تلك، وكأنه ليس في هذا العالم ولا يهمه من شأنه شيء، وليس في الساحة ما يقي من حر أو قر، لا شجر ولا حجر، وكأن العالم كله انقلب رأسا على عقب، وصارت الكرة الأرضية كمدخنة لفظت بقاياها، ولوحت بها إلى هذه الساحة. تسمع كل اللغات، وترى كل الأجناس، وتقرأ لوحات السيارات من كل جهات المعمور، وأنت في ساحة من ساحات صحراء "قارت"، أو كأن العالم تم تصغيره ورمي به في هذه البقعة القفراء التي لا شجر فيها ولا حجر، ولا أحد يتحدث عن البغلة التي جئت وجاؤوا من أجلها.

لا أحد يذكر البغلة ولو بالإشارة. جاؤوا كلهم لرؤية العجب وسماع العجاب، وهاهم ينسون كل ذلك، وينغمسون في أشيائهم، يتحدثون عن الخارج وخارج الخارج، ويشتمون ويسبون الداخل وداخل الداخل، وكأن هذه البلاد لا تنتج سوى الجرب، والكل مستعد للفرار، أو على أهبته، ويا ويل من سنحت له الفرصة وضيعها.

قلت. قلنا. قال محدثنا: سألنا عن البغلة فلم نلق جوابا، وكل من سألناه كان يجيبنا مستغربا مستنكرا، بأنه لم يسبق له أن سمع أو رأى إنسيا أو جنيا أو حيوانا أو مكانا حتى، بالصفات التي ذكرنا.

قال محدثنا الذي سمع ورأى وسأل فأجيب، ورتق بالعدل والتجريح والعهدة عليه: أعياني التطواف في الساحة وحول الجبل، الذي كان على شكل قبة، وقد ضرب بعضهم خيامهم في بعض جهاته. وبينما أنا أطوف طوافي العاشر، لاح لي في ركن قصي من أركان الساحة الغبراء، ما يشبه كوخا يجلس قرب بابه الذي بدون باب شيخ هرم، أو هكذا خيل إلي أو تراءى لي، أمامه بردعة يعمل على إصلاح ما خرق منها ويرتق بعض خرومها، ومجمر فوقه براد اسود لونه، ولا يمكن تخمين عمره الذي لن يكون إلا من عمر صاحبه. دنوت من الشيخ قال. أبغي سؤاله. وقبل أن أفتح فمي المخرب، أشار علي بالجلوس، واضعا سبابته على شفتيه اليابستين بما يعني أن اصمت. مد يده إلى كيس بلاستيكي. أخرج منه علبة كبريت، ملأها إلى أن فاض محتواها عن أطرافها. وضعها في قطعة بلاستيكية، ربطها بتؤدة، ومدني بها مغمغما: عشرة دراهم. قلت: ياسيدنا ومولانا، ما من أجل "العشبة" جئت، وما سبقت لي ألفتها ولا عشرة ألآفها. ابتسم الشيخ ولم ينبس. أخرج "سبسيا" ملأ "شقفه"، وأشعل لهيبه، ثم مده تجاهي، ودمدم: خذ لك هذا وستجد أجوبة لكل أسئلتك. قلت: والله لن آخذه حتى تحدثني عن البغلة التي جئت أتأكد من خبرها. قال: البغلة هي أخت الشاة التي سمعت عنها وما رأيت، ولا أحد رأى، والناس مجبولون على

هذا، وإن شئت تفصيلا لجوابك أكثر مما أنا محدثك عنه، وما أنا بقادر على ذلك، فاعلم أن البغلة حديث من لا حديث له، مثلها مثل أكل فاكهة الصبار؛ لا المقل يجد شبعه، ولا المكثر يجلو راحته، وإن رغبت الاستزادة عليك بهذا، أكثر منه تصل بغيتك، وربما قليله يغنيك، وكثيره يعفيك، وربما رأيت وسمعت، وإن كان ما كان فاعلم أنك أنت المقصود، والأمر عليك مرصود. قال محدثنا، الذي رأى بعد ذلك وسمع، وعلم اليقين الذي ما بعده يقين: أخذت من "العشبة" واستزدت، إلى أن استوى أمري وأمر الناس الذين من حولي، وعرفت أنني المقصود، بما أوحى إلي، وانكشفت لي أسرار وأسرار. طلبت من الشيخ زاد عام أو يزيد، ومنذ آنئذ، وأنا أرى البغلة وأسمع حديثها، والناس من حولي يلحون، وأنا أحدثهم حديثها، وها أنتم يا إخوتي بدوركم تلحون، وها أنا كما وعدتكم، أخبركم بكل ما جد، وأحدثكم وأزيد.

قال محدثنا، الذي حسبناه ثالثنا ولم يكن كذلك: "وأزيد..وأزيد.. وأزيد.". ولما استدرت أبحث عن ذلك الذي كان ينازعني الواحد الذي كنته أو أكثر لم أجد غيري، وقد صرت واحدا أس صفر، والريح الجاف يقطع صحراء "قارت" أو "شارظ" أو "كرت"، وأنا بين "الدريوش" و"العروي"، أتأبط "المُغرب" و"المسالك والممالك" و"صورة الأرض" و"المغرب المجهول" و"وصف إفريقيا"،

ورجع الهوى صداح: "ها الفلاح.. ها الفلاح"، وأقطع الريح وتقطعني، متشردا وحيدا، مثل بغل يبحث عن بغلة، في يوم صيف قائظ، لا شجر يقي حره، ولا حجر ينقط قفره.

فصول التخمين

قال صاحب

"سقط الخاطر"،

غفر الله له وعفا عنه:

"ولا تجعل من اللغو، ولا من اللهو

غاية،ولا تقصر حيث يجب أن تطيل، ولا تطل حيث

يجب أن تقصر، ولا تمل مع الريح حيث مالت. فإنك إن

فعلت صرت كذنب الديك الذي قالوا عنه يميل مع الريح".

من كتاب "القول المريح والدر الفسيح ما بين الشيح والريح".

النهار دخان..الطريق مملوءة بالحصى ومتربة، والجراد ينط على الجنبات وينط. تبدو هذه الطريق على صورة أفعى يصعد منها دخان عظيم كأن الجن الأحمر يقذف به فيرتفع في السماء. أساسه راسخ في السهل أو في جوفه، ومنه يخرج ما لا يعد ولا يحصى من خلق الله. وأنا سائر أبني وأهدم في الأبراج، وأنظر ولا أرى إلا النجوم والدخان، وأتساءل .. أبني وأهدم وأتساءل. قلت لنفسي: هذا هو السراط، ما أحزنني ما فات ولا أفرحني ما هو آت، وما انقطع شيء مما أخذ يلعلع في جوفي، وفي ثنايا تحفي الملتهب .

لا أعرف، ولا أتذكر حتى ما حدث بالضبط. فلن، ولن أزعم "أن" أو "إن"، فقد زعموا، وما زالوا يزعمون، وما انتهوا إلى منتهى ولن ينتهوا. هذا هو السراط، وما بعده الله أعلم! واسمع من يغمغم ويدمدم. وهل أتعرض للمحصنات، أو أتمادى في غي وصف أحوال النساء وهن محرمات؟ وما ضره! كل شيء سينتهي إلى اللحد. أعيش قهرا، واستمسك دهرا، ولا من محسن عوني، أو مستمرئ فعلي. وما أصول التخمين في "ألباب المعارف"؟

قال: فإذا أنت رأيتها بالغداة وقد أدبر ريحها، أو مشت بحذاء رأسك، والبقل قل، والماء كأنه عذب وما هو بعذب. فلا تأفل عند أول الليل، فإن حال يومك سيكون ميمونا في الأفلاك، ويطلع حظك

مع مطلع كل فجر لنيف وعشر ليال بالتمام والكمال، واحصد ما طاب لك من البقول إلى متم الليلة العاشرة مع تبين الخيط الأبيض من الأسود، واحزم آنئذ أمرك لترى؛ أيذهب الحظ أم يعود؟ وعلامات العود كثيرة عند أسيادنا منها، رحمك الله؛ ظهور مائة واثنين وعشرين نجما يتقدمهم أكبرهم، ويقال بأنه نجم ذي القرنين، وإذا زاد عن هذا العدد، ورأيت الثريا في موضع الغروب، ثم رأيت حزاما يحف بها يشبه المنارة، أو على هيئة آدمي يده ممدودة جهة الشرق، فاعمل ذهنك لأي جهة تدور بدفتك، واسع إلى النجاة قبل فوات الفلاة.

وفصول التخمين عند القدماء والمحدثين عشرة. هكذا وردت عند بعضهم. وقد سمعت شيخي العارف يوما، يعدها ويرددها ملحنة على مقامات ونوبات معلومة عندهم، رفض كشف أسرارها إلا بشرط بلوغ مقام الدراية، وكنت دونه في مقام الوشاية.

ولما بلغت، ألححت في السؤال، قال: جاء في "سقط الخاطر"؛ ثم إن بيدبا الفيلسوف قال للملك: اِعلم يا صاحب الجلالة والمهابة أنه كان بأرض من الجزر، امرأة عانس، تعيش في كوخ بني على ربوة مطلة على مفازة، وعلى تلة مقابلة يعيش شيخ مسن يتخذ من مغارة هناك مأوى ومسكن، فكان ينظر أحدهما إلى الآخر، ويشير لها وتشير له، ويتكلمان بالإشارات، إلا أنه لم يكن بمقدورهما جواز المفازة لكثرة

وحوشها وفتكها بالعابرين. ولما كان من طبع بني آدم التعايش في ما بينهم وعجز فرد منهم من القيام بأمره، فقد كان كل واحد منهما يفكر في طريقة توصله إلى صاحبه. ولما كان من طبع الرجل المبادأة، اهتدى الشيخ إلى صنع قوس كبير وضعه فوق بعض الصخور الضخمة، وانتظر إلى أن كان يوما صحوا، والمرأة تراقبه، فأحضر حبلا فتله بالدوم، وربطه إلى بطنه، وابتعد لمسافة حتى توتر الحبل وفي ظنه أنه سيقذف به إلى الربوة، لكن خذله ظنه وسقط وسط المفازة فتلقفته الوحوش والمرأة تنظر وترى. وهذا حال من ملكت عليه غرائزه نفسه، وكان بمكنته الوصول إلى بغيته لو أنه حكم عقله، وتدبر بالروية أمره، وقد قيل...

هسسس...!

توقف بيدبا حين أشارت عليه جارية الملك بذلك، لأن صاحب الجلالة كان يغط في نوم عميق على فخذها. قام يستأذن في الانصراف، إلا أن بواب الملك استبطأه إلى حين يأذن الحاجب. وهذا متم خبر فصل تخمين الملك يليه خبر فصل تخمين الوزير.

فصل تخمين الوزير: توقف الرجل، وقد أهمه ما هو فيه، وانتظر أمام الباب. سمع صوت الحاجب الذي في عرفكم وزيرا، يدعوه

للدخول، وخمن ما وراءه. دخل فإذا به يجد صاحبه بين عشر جوار يلاطفهن ويداعبهن؛ منهن الجالسة، ومنهن الواقفة، ومنهن من لا شغل لها، ومنهن الساقية، وكل واحدة ممسكة منه بطرف تفعل فيه الفاحشة ولا تفعل، وهو يستزيد الملاطفة واللمس وما جاوره أو تجاوزه، ويلح في طِلْبَةِ الغُسل من أدران هموم العامة. وبيدبا بين اليقين والتخمين. طلب منه الوزير أن يأتي بنادرة. قال: اِعلم يا صاحب السعادة، أنه كان بأرض من بلاد...ضحكت الجواري. طلب منه الحاجب الذي صار وزيرا في عرفكم، أن يكف عن التخريف. أنت في حاجة إلى غسل الدماغ وتهيئته قال. خذ لك هذا. أشار إلى الجارية الساقية، فمدته بقدح لم يكن له من خيار غير شربه. استأذن في الجلوس. قامت إليه جارية أمسكت برقبته ودفعته إلى كنبة، والحاجب يقهقه. وأخذت تسقي بواره وقفره، خذ لك هذا . وكفاك هذا .خذ هذه، وهذه، إلا هذه، وزد لك هذه. والكأس تلي أخواتها حتى سرى الدبيب في جوفه، فضيع عليه التمييز بين قفاه ووجهه. طلبت منه الجارية أن يدب على أربع، والوزير يضحك والجواري يفعلن فعله ويجارينه. علت فوقه، وبدأت تلكزه وتسوطه، حتى خال نفسه حصانا.

فصل تخمين الحصان: أحس بيدبا بنشوة عارمة، وجارية مولاه الحسناء تمتطي سرجه المطرز بالذهب والفضة، فأطلق ساقيه للريح.

كان يحس بجسدها خفيفا ، فتزداد سرعته. تخيل شعرها المتطاير، وثوبها الشفيف، نزل بمخيلته إلى الساقين المكتنزين، فألهبه احتكاكهما بالسرج وبالركاب، فتضاعفت خفته وسرعته ورشاقته. تمنى لو أن الأمر يطول به إلى ما لا نهاية. إلى أن يصل إلى هناك حيث تنتظره فرسه. آه آه ! حبيبات العرق لا تهمه. الذي كان متأكدا منه، أنه يحمل كنزا ثمينا. وما عليه. السعادة تمتزج حلاوتها بملوحة قطرات العرق وهي تغسل بدنه الذي صار خفيفا والله. تزداد حبيبات العرق وتغمر قوائمه الدقيقة. لو أنه عاش زمن داحس والغبراء! هو وحده كان خليقا بمعلقة امرئ القيس، وما عداه لاشيء. فجأة. وعلى حين غرة اعترضت طريقه هوة. لم يدر من أين جاءت، أو كيف انحفرت. هوة ما حسب لها حسابا ولا خال لها مثيلة. وقع في ذهنه ما وقع من قصة "سيدنا علي ورأس الغول"، فظهر له أن يبين لفارسته الغالية مهارته في المراوغة والقفز. دار دورة سريعة ، تبين له في ما بعد أنه لم يقدر الأمر كما كان يجب، أو أنه لم يكن بالمستوى الذي خاله، والمرء مجبول على الاغترار، والهوى غرار غوال. فقد توازنه فهوى في الهوة السحيقة، ولم يدر إلا ورأسه ترتطم بشيء صلب.

كانت القهقهات والضحكات تصل إلى أذنيه كأنها صدى تردده الجبال، تأتيه من بعيد فلا يميز منها سوى الطنين. ما إن تصطدم

بطبلتي أذنيه حتى تضيع وتتلاشى. بدأ شيئا فشيئا يستعيد وعيه، ويعقل وضعه. انتفض وحاول أن يستعيد بعض هيبته المهرقة. لكن جارية أخرى، قامت إليه ودفعته بغنج ودلال. لم أر في حياتي فيلا. أريد أن أركب فيلا يا صاحب السعادة. قالت. حاول بيدبا أن يتمنع، وفي ظنه الوزير ناصره. إلا أن تمنعه اصطدم بنظرة حادة من الوزير اخترقت دواخله، فجعلته ذلولا. اركبيه هنيئا مريئا قال. وما كان منه إلا صنعة هيئة فيل.

فصل تخمين الفيل: لم يكن لحنينه إلى غابات الهند حد. ولم يدر بخلده، أنه سيجد نفسه يوما مربوطا، وعلى هذه الطريقة المهينة، إلى عمود من أعمدة قصر أمير عابث. كان الأمير دربه وعوده على وظيفة، وجدها في البداية مسلية. كان يذهب كل صباح إلى قرية محبوبة الأمير. يأتي بها قبل الشروق. أحيانا يجد ذلك مملا. لكن السياط قادرة على أن تضع حدا لكل ملل يساوره. ينطلق باكرا قاطعا المسافات الطويلة، وعيناه لا تحيدان عن السبيل المألوفة لديه، ورغم أنه كان يسمع نداءات القطعان من الغابات القريبة، إلا أن التجربة علمته الانضباط. فالأمير قادر على كل شيء. لا أحد يقف دون تحقيق رغبة من رغباته. أحيانا كان يتعقل من تلقاء نفسه. وماذا في الأمر، وهو يحمل تلك الحسناء كل صباح على ظهره، ويعيدها في المساء ؟ يتملى

بجمالها وبألوان ثيابها الزاهية، وشعرها المتطاير، وهو يميل مع الريح، ويتحمل غنجها ودلالها، ويستلطف لسعات سوطها. ماذا يريد فيل أكثر من ذلك. ولم خلق الفيل أصلا؟

حين يصل بحسنائه إلى القصر يجد صاحبها ممسكا بباقة عشب يناولها إياها لتقذفها جهة خرطومه هدية. لاشك أن الفيلة كلها تحسده على نعيمه. هذا أفضل من التسكع في الأدغال ومصارعة الأقران. الذي ينقصه، فقط.. لو أنهم، وهم قادرون على ذلك.. لو أنهم أحضروا له بدوره فيلة. لا أقل ولا أكثر. فيلة تؤنس وحدته. نعم فيلة. لم يكن يتصور يوما أن أمنيته هذه ستتحقق، وبتلك الطريقة التي تمت بها، وبذلك الثمن الذي دفعه عن غير قصد. ففي إحدى الصباحات، وهو يعود من مهمته اليومية، شاهد، وياللعجب! فيلة مربوطة عند العمود الذي يربط إليه. عاد من سفرته اليومية، وفي نفسه إحساس غامض. أسعده مرأى الفيلة هاجعة في مربطه. إنها فيلة جميلة، وضخمة، ويا لها من مناسبة والموسم موسم إخصاب! أسعده ذلك. ورغم أنه لم ير فيلة منذ مدة، ونسي أنه ذكر فيل، فإن غريزته استفاقت أقوى مما كان يمكن أن يتصوره. وفي غفلة منه، انطلق يعدو على غير عادته . انطلق وخرطومه يسيل لعابا، وصرخات محمولته تدوزن إيقاع خطوه، متدلية تمسك بما تمكن لها من ذيله، وعيناه لا تفارقان مؤخرة الفيلة المنتفخة.

انشغل بما ملك عليه جوارحه، وإذا بحرس القصر مدججين بهراوات طويلة حادة الأطراف ينهالون عليه ضربا ووخزا من كل الجهات. أحس بلسعات تمزق جلده في كل أنحاء جسمه، وبشيء يمزق مؤخرته.

استفاق بيدبا من توهمه على لسعات سوط الجارية يلهب إليتيه، في حين كان الحاجب مستلق على ظهره من كثرة الضحك وهو يضرب على يد هذه، وعلى فخذ تلك، ومؤخرة أخرى، يضحك ويتمرغ. قالت الجارية: أتجعل لي فيه يا مولاي الخمس؟

ماذا تقول هذه الباغية؟ استلقى الحاجب على قفاه من الضحك، وأشار إليها بالموافقة. قالت: سآخذ يا مولاي خمسي إلى قلعتي، وأعيد لك الباقي. كان الأمر قد بلغ ببيدبا ما لا يمكن لعاقل تصوره. ولم يكن بمكنته غير الاختيار بين حدين لا ثالث بينهما. مسايرة هذا الرهط إلى أن يجعل الله له مخرجا، أو الهلاك. وبما أنه سبق له أن رأى ما ليس بمقدوره تصوره ولا تحمله من أنواع الهلاك، فقد اختار المجاراة، وذلك أضعف الإيمان. قالت الجارية: أيها الفيلسوف، سأستضيفك في رخي. آخذ خمسي، وأعيدك إلى مولاك. أصابت أوصاله رعشة . ما هذا الخمس الذي تتحدث عنه هذه المصيبة ؟ كل شيء أتنازل عنه إلا...وتوهم ذلك الخمس وهو يؤخذ منه فهاله الأمر.

فصل تخمين الرخ: أمسكت الملعونة بقفاي تجرني وأنا أعوي كجرو، ورأسي يدور، قال بيدبا، إلى أن أدخلتني حجرة ما رأت عيناي مثيلة لها. رأسي يدور وكل ما حولي يدوّر، وفي نيتي كيف أطعم رخا، وما سبق لي أن رأيته أو حتى خمنته غير ما روى لي أحدهم عن حكاية عبد الرحمان المغربي. وأعجب ما رأيت سريرا على صفة رخ، فوقر في نفسي غير ما حسبت وأحسنه، ما إن وعيته حتى أسرعت أرتمي فوقه. لكن الجارية جرتني من قفاي مرة أخرى. قالت: أنت لي الليلة، ولك ما سيأتي من الليالي. أخبرتها أني ما ملكت نفسي يوما ولا كنت لها ليلة أو كانت لي. قالت: أنت تشبه بيدقا. قلت: مالي لا أسمع إلا ما له علاقة بتلك الرقعة التي أفقدتني بعضا من عقلي؟ قالت: حتى آخذ خمسي. هالني ما سمعت، وذكرى تاجر البندقية لا يفارقني. قلت: وما خمسك مني يا أميرة بن أمير؟ قالت: بيدق أو بيدقان. قلت: على الرقعة ثمانية بيادق فأيها صرت؟ قالت: دونهما منازلتي. هيأت المرأة أطعمة وأشربة، وقناني معتقة، وفرشت الرقعة أمامي، وقعدت قبالتي. كنا نأكل ونشرب ونلعب. نأكل ونشرب ونلعب. قلت: حدثيني حديث البيدقين. قالت: هذا سر من أسرار الدولة. ولما لعبت الخمرة برأسها، قالت: هاك سر بيدق الملك ويليه سر بيدق الوزير.

فصل تخمين بيدق الملك:

قالبت: كان الغالب جنديا من جنود المغلوب. ترقى درجات "الوظيف" وسلاليمه، كما يقال في زمانكم، إلى أن أصبح صاحب السر، وذلك كله بفضل دهائه ومكره، ومهارته في الإيقاع بمنافسيه وتفننه في لعب الأدوار. إلى أن سمعنا يوما، بواسطة البراحين، حدوث انقلاب أبيض، وصفوه بالثورة، تبين أن متزعمه هو نفسه، وأعلن الغالب نفسه حاكما مؤقتا مدى الحياة لإمارة الغالبية... وها بيدقي، قاطعتها، يصل الصف الثامن، ويصير وزيرا. تمتمت أستدرك؛ لكن المعروف أن البيدق حين يترقى يصير وزيرا، فكيف أصبح الغالب ملكا؟ قالت: وضع للغالبية كتابا أسماه دستورا، واستفتى الناس في شأنه فأفتوا بالموافقة، ولما طالبت العامة بتعديل بعض فقرات الكتاب، نظم عدة استفتاءات أخرى كانت كلها لصالحه.

قلت: هذا حديث بيدق الملك، وما خبر بيدق الوزير؟

فصل تخمين بيدق الوزير:

قالت: كان للغالب صديق قديم في الجندية يدعى المغَلب، وكان من أشد المخلصين له، إلى أن حدث ما حدث مما علمت. فقربه إليه وجعله حاجبه الذي لا يفارقه إلا لأمر جلل، ومنه ما رأيت وسمعت.

فهمت كلام الجارية وما فهمت. كان رأسي قد زال عنه بعض الطنين، وخف ما بصدغي من صفير، وترقى بيدقان من بيادقي،

فحاصرت مليك منافستي التي أعلنت سقوط إمارة الغالبية. قالت: شاه مات، ولك ما تشاء. وكان لي ما شئت وما لم أشأه إلى متم الليل. وحين أصبح الصباح تسللت أبغي الانصراف من القصر، منعني الحراس. أشبعوني ضربا، ورموني في زنزانة مظلمة؛ ظلمتها أحلك من أي ظلمة رأيت، إلى أن كان عيد الثورة المظفرة، فتم إطلاق سراحي بعفو مولوي. ولما خرجت، وجدتني في زمن غير زمني.

وهذا مكمن همي أيها السادة، وقد أشركتكم فيه، وأنا أبني وأهدم في الأبراج، وأنظر إلى النجوم. أتساءل عن الأمس وما كان، وعن اليوم وما صار، وأعرف يقينا أن لا أحد سيصدقني، ما زاد من غمي، ومن لعلعة هذه النار في جوفي، حفظكم الله.

قال ": "ومن رأى في منامه دخانا فلينظر، فلا

دخان بدون نار."

مملوك على الشياع

قال:

ثم إن الشيخ التفت إلى مريديه من أهل الكدية، بعد ما رأى من تحلقهم حول براد الشاي المنعنع، تحلق النمل الأسود، يبغون الارتواء، وعهده بهم عطش أزمن في أمعاءهم إلى أجل غير مسمى، واعتكاف دون الصلوات، على صلاة الاستسقاء، كأنهم البر الأقفر. ولو أن الله صير لهم البحر المحيط شايا ما ارتووا، وجعل لهم جبال الهملايا خبزا ما شبعوا، فقال: ما لي أراكم تبصبصون وتبحلقون؟ قالوا: يا شيخنا. ما لنا قلب على المبادأة دونك ونحن تحت إمرتك، فاعدل بيننا ، وقد هاجرنا عيالنا من أجل خدمتك والنظر في وجهك. طلب منهم مهلة مقابل جرعة، فازوروا. ولما رأى منهم ذلك، عدل عن الجرعة إلى الرشفة، وذلك بحسبه ضعف أصاب إيمانه، فاشترطوا مقابلها عجيب يومه أو غريبه، فقال:

بعد يوم مضن في النط والجري، والزحف خلف محرك الشعوب، والنفس مكلومة والجيب مخروم مثقوب، قصدت الكشك، والبال خال من الشك، بأن لابد من جديد، والناس يلوكون أخبارا مفادها؛ أن كائنات غير مرئية غزت البلاد، فأنهكت المسؤولين -كان الله في

عونهم- المهمومين المنشغلين بمصائر العباد. تأبطت رزمة يا إخوة الفقر، وانتحلت مكانا قصيا، أنشد هدوءا كافيا، متمنيا أن يزيل كحلها عن نفسي بعض الغمة، وقد تخلصت من أمل كان، في أن يصير صوتي، أو وجهي مضافا إلى نجمة أو حتى نجم من نجوم "كان". شدتني وجوه إليها شدا، قبل أن أقر عينا بموضوع بعينه، وكالعادة، في التطفل والتملي في حينه، طفقت أتأمل الوجوه، القديم منها والجديد، النكرات والمعارف، وفي ذهني أن بعد المعارف، وبعضها أحوال، والحال دوامه من المحال، أما بعد النكرات، فحلول صاحبها مقاما، دون نية التقصير، نعتا أو ما يدعى بالنعت، اللصيق بصاحبه، إلى أن يثبت العكس، لصق الزفت. وبما أني أقررت بمجموعة من الصفات، الدائمة الحركة، بلا يمن وبلا بركة، بأن ذلك النون، بعد الهمزة، وقبل الألف، الرامز لحامل ذلك الرأس الخرف، عطلت عشاره، وبيع في المزاد هلاله، وخربت دياره، وحرم حلاله، وكمم بلاله، وسرج له على رطب هوان، وألبس بدل العمامة الإزار، وغرر به من كهف لغار، وصار نسيا منسيا، وأضعف ناصر وسبيا مسبيا.

وأنا أقلب الوجوه أيها الأخيار، كواش يقتنص الأخبار، بدأ ذلك الشيء من أسفل؛ من القدم، فالساق، فإلى باقي الجسد ساقه المساق، حتى صار الحك هرشا. وحين أنهكني السلخ بالأظافر،

انبطحت أتقلب في التراب، وقد تخلصت من ثقيل لخفيف الثياب. والعبد الضعيف على هذه الحال، لمعت في الرأس الأشيب فكرة، هي أقرب إلى أمنية؛ أن أرى، على هذه الحال، ولو واحدة من تلك الزواحف الكرشاء، المثخنة بالشحوم، المثقلة باللحوم، وهي كالقدر على الأعناق، استلذت طنافس القفى، فاتسعت مؤخراتها، وفاض الزائد منها واستطاب المقام وانتشى، وشدت عليه بالنواجذ، وأشبعت من ناح أو بكى، بأطيب المواعظ، وإن زاد الأمر عن اللزوم، أنزلت من زرقاء ألفناها تمطر غيثا، لأن، وسوف وريثما، وإن لم تصم الغوغاء عن الطنين، فلهم منها زراوط ملساء حسناء تمسد مكامن الأنين، وترجع الأمور إلى نصابها في الآن والحين، وتجعل البلهاء عقلاء، وتفصل بين الحقوق والعقوق، وتعلم أن الإدام، في مشمشة العظام، ومن تطاول إلى ما عند غيره تجاوزنا ما دون الحزام.

وأنا على الحال التي ذكرت، تذكرت السيدة المعلومة، فاطنة بنت ميمونة المرحومة، غفر الله لنا ولها. الحية الذكر، الجارية كراماتها على كل لسان، في ممالك العجماوات وبني الإنسان، وقد أخبرت أنها أورثت ابنتها المصونة حلومة، علوم تقتير الأعشاب، واستخراج العقاقير من عروق النبات وبطون العناكب، ومن عظام الأحياء والأموات، وأمعاء البعوض وزغب الثعالب.

صرخت، وأنا أتذكرها، يا إخوة الخير، صرخة غريق: "وا حلومتاه!" ولم أدر إلا وغبار كثيف على هيئة زوبعة علا، وكأن الأرض انشقت فنفثت غضبها زخة، أو تقول أطلقت يأسها زفرة، حتى انقشع الغبار عن الأمر وانجلى؛ عن وجه كأنه البدر في ليلة تمامه، مسوك مكحل موشوم، وعن قد ما رأت عيني مثيلا له، ولا سمعت أذني بوصف ندا له، لا في الليالي ولا في عطور الرياض، وبشرة لا مشوبة ببُنِّ السمرة، ولا بثلج البياض.

قرقرت، يا إخوة القهر، قرقرة دجاجة لم تبض لدهر، وصام لساني عن الحركة والقول، ولم يعد لي من الحواس للتعبير سوى نظرات جاحظة بلهاء توتر أقواس التيه، وترمي بسهام عرجاء رؤوسها كأنها الشياطين، فتبين لي السبيل جليا واضحا، إلى الغرق المبين.

فهمت لال حلومة المراد، حفظها الله من كل شر مهين، وفرج كربتها يوم الدين، فكانت أنجد من بعل، وأجرأ من حنبعل، وأمرأ من معتصم العصر، وأكرم من حاتم البر وحاتم البحر،وأسرع من داحس، وألحق من الغبراء، وأشجع من عنترة وأعبر من طارق. وصدرها! أرحب من ساحات دمشق تحت حمّارة قيض قوم عاد، وأزهر من حدائق بابل قبل أن تعبث بها أقدام قوم غلاظ شداد.

وأنا يا إخوة، غارق في ما أنا فيه من سقر، نطقت المصونة فأذابت الصخر. قالت: أنت مملوك على الشيوع، لكائنات صغيرة تتقاذفها رغبات إجراء قسمة عادلة مشروعة، لجلد استلذت مسامه، فغزته غزوة "سام"، فجعلته أرضا خلاء جرداء. ولكثرتها، لن يتمكن أي قاض أو جبري، ولو اجتمع ابن الحفيد بابن حيان"، من فك الطلاسم المرصودة، وحساب الأسهم والحصيص، لكل زاق مصاص حريص، أو ضم الأجزاء المجزوءة لكل أنملة مبثوثة. والرأي أيها المشاع عندي رأيان، لن تجد لهما ثالثا، لا عند حكماء الشرق ولا عند علماء الغرب. ألفهما، يا عين حلومة، أن ترضى بما أنت فيه، فأزودك بمشط أسنانه أحد من سيف عنترة، وأرق من ريشة صاحب حنظلة، تهرش بها جلدك الموبوء، فتصلاها في الأولى قبل الآخرة، أو بحبل تنشده مشنقة موزونا مقفى، إكليلا من" قدامة"[1]، فترتاح وتريح، أو تقبل عقدا للشركة والشراكة، على شرط دونك خم أو براكة، فتبوح وتبيح.

أما باؤهما، يا عينيَ!! زودتك إن رغبت فيما رغبت "لالك"، بخبر عشبة لا خضراء ولا سوداء، هي بين بين، عشباء قددا، تجعل رأسك الأبيض أسودا، وذقنك الأزغب أمردا، تميز بين ذكر البرغوث وأنثاه والجند والرئيس، فتنسل به على رأس كل حول كبيس. أما

[1]- الإشارة إلى حد الشعر عند قدامة بن جعفر في كتابه "نقد الشعر".

الوصول إلى العشبة، يا كبد "لالك"، فعليك ببراق تركبه، وتطعمه من نيئ ظبي العراق، بعد جواز كل يم عميق مراق، ماؤه ملح أجاج، وصفاؤه شفاف زجاج.

وفهمت بذكر حلومة لظبي العراق، أنها كذبت وإن صدقت، وجاهلة بمستجدات الأمور وإن ادعت غير ذلك، فنبت في خلدي، وأنا في أعلى درجات سلم الوجل، أن أرى رأي صاحب "السيل" قبل استلذاذ كنبة الوزارة، فأعالج الأمور بكياسة صاحب "العلامة" في متوغله[2]، قبل انفراط الرياسة، والرقي بالتؤدة الواجبة للسالك المريد إلى مداغ ثم مكناسة، والانتقال من مقام البله إلى مقام الجنون، وعبور مفازات الدروب السيارة، ببراغيثها الجرارة.

قال الرواي غفر الله لنا وله: وكان الرجل يلح على حق الرشف بعد كل جملة ينطقها، حتى أتى على ما في البراد ، فطلب استقطاره، ثم مص ثفله، وما كاد ينهي آخر كلمة من قوله، حتى أطلق ساقيه للريح، والجمع من ورائه في هف ولف عن حجر أو حصى، حتى كان وكأنه لم يكن، فانفرط عقدهم شذر مذر وهم يتلاومون.

[2]- الإشارة هنا إلى كتاب بنسالم حميش:"أنا المتوغل وقصص فكرية أخرى".

نسل الحكاية

أو:

ابن ضربان التازي يمضع علكته الأخيرة

وقيل إنه بعد ما حل بابن ضربان السيد التازي ألم المفاصل، والقول فيه منسوب إلى حفيده، وأقعده عن طلب ما كان قد تعوده من شفط القدور وكنسها، وفك مسغبته المزمنة، وتليين تخشب أعتاب المرئ، استدعى عدلا ثقة من معارفه أبدى في وجهه الكلوح بشاشة، مستحثا إياه إفراغ الدواة على القرطاس مهارة، لأن العجوز، ربة الدار، ترفعت عنه جراءة، وانقطعت عنها عادة القيل والقال، وصارت إلى الخلوة أسكن، وإلى السبحة أركن، فأحزنه أن تكون السباقة إلى سلوك مسلك التوبة النصوح، فما عادت توليه إلا ظهرها وترجيعات ما رق وما غلظ من أمعائها، إلى درجة أحزنه ازورارها، وهو أحق بدمية من دميات العصر، تمص منه ما سبقها إليه خرم

العظم، فمال إلى الانتكاس، واستوحش التحاريق ونياط القلب، واستعصم بالثلاث، وقضاء الحاجة بالاختلاس، واسترغب الصبوات والإيناس، فأحسن الاستضافة، وأفاض في مظاهر التشبه بالشباب، وإخفاء تهاويل الزمن بالخضاب، وإظهار المقدرة على فك مغاليق المسائل وإن استعصت واستحصنت على أولي الألباب، وأوقعت في تزاويق تصابيه الهياب.

أخذ ابن ضربان التازي يبث العدل مكنون هلوساته قناطير مقنطرة، والعدل يستزيد ويستفسر، إلى أن ثقل عليه الجراب، فتيقن من باب لا يمكن أن يتسرب منه ريح الشك، إلى خرف الرجل وخراب دماغه، فانصرف بوعد لقاء قريب أودعه إياه.

قال الحفيد: وكنت آنئذ صبيا يتلمس سبيلا إلى لقمة يسد بها ثقوب القادم من الأيام، فقلت ليكن هذا مستهلي، ولأدع التخمين في المنتهى لأيام أخر. وكان علم جدي في سد الخروم، إلا خروم عظمه ومفاصله، غزيرا بما تلوكه الألسن. قلت في خاطري، لأفز منه بالقليل قبل أن يسبقني إليه هازم اللذات. ولما أسررت إليه بالأمر، طلب إحضار دواة وقصب أبراه فأحسن وأجاد وأتقن، وصاح أكتب. قال: أكتب خمسا . قلت برفق: وما الخمس يا جدي؟ قال: أكتب. قلت: وما أنا كاتب؟ قال: أكتب ثلاثا. ثم قال: أكتب اثنتين. ولما سألت عن

الاثنتين، صاح : لك واحدة ولن أزيد عنها ولو حضر ملك الموت. لحضر ملك الموت. استبطأته بتقبيل اليدين والرجلين، فاستعجل، ورجوته أن يدع لليتيم المقطوع من شجرة الواحدة، بالله وتالله. ولما رفعت سبابة جدي ألقنه الشهادة الأخيرة، حشرج: الجراب. ثم رحل عن دار الفناء إلى دار البقاء، من دون أن يتمكن من لفظ الشهادتين.

أورثني جدي جرابه، فطفقت أجوب الآفاق، أنسج حكاية تلو الحكاية. كنت أمارس حرفتي في الهواء الطلق، في الساحات والأسواق، وأمام أبواب المساجد. ولما وهن العظم مني، وأقعدني ألم المفاصل، مثل ما فعل مع جدي، لم أجد إلا حفيدي أبثه أشجاني. كان ولدا جسورا نزقا، سريع البديهة، فطنا. كنت أخاف منه الابتلاء في زمن كل شيء آل فيه إلى البوار، وسبب لي الأمر ألما مضاعفا ومعاناة. أراقبه مراقبة لا تفتر آن تواجده في مرمى ناظري. حكاء قادم لا محالة، يجهل ما تخفيه له الأيام من كوالح إن استصرخ بها عليها، وما يدريه. وما صنعَتُهُ بالجراب الذي أخفيه؟ الجراب أورثنيه جدي. أوَ أورث حفيدي جراب جدي في زمن المحمول؟ ولكن كيف أمنعه منه وأمنع عنه البلوى؟ كنت أراه منكبا على الكراريس يدون، ويدون. يلح على الإفصاح ويدقق، يدون ويضيف، فيولد من حكاية عجفاء عاقر بنات الحقول من شقائق نعمان ونوادر ريحان. صار لا يفارقني، ويلح في

السؤال، حتى صرت لا أقوى على مجارات طلباته من عجز الكلام، فيطلب الإشارة. أشير فيرسم الإشارة، ويقرأها بالتخمين والتأويل إلى أن تستقيم ما شاء له ويزيد. كانت قواي تضعف وتخور. وحين أحس النزق بدنو الأجل، وكأنه يعلم الغيب، تعشش كالعنكبوت حَذَائِي، يسعى بالسؤال وبغير السؤال إلى ما يرغب، وأسعى وأداري بما فضل لي من دماغ إلى غيره، وكأنه يسابق الزمن. وذات مساء، وقد صرت عاجزا عن الحركة والإشارة، أحسست بالروح تقمش من جسدي المخرج لتنسل، أجهدت إليه بالإشارة، فلمعت عيناه برقا، وأحضر الكراس يستمرئ التدوين، وأنا أرفع السبابة للتشهد الأخير، بعد أن تذكرت غلطة جدي. اِقترب كالجن الأزرق، لما قرأ مني رغبة الإسرار، قرب أذنه من شفتي يستخبر، حشرجت بالشهادة، وانقضضت على أذنه في نزعي الأخير أقضمها، علني أضع حدا لنسل الحكاية الملعون هذا.

ذكـــرى

"اِعلمْ خديمنا الأرضي، أن النفس نفس آكانت إلى اللؤم تدعو أم إلى الأمر ترنو، وحذار حذار، إن ركنت إلى ما حسبته منها طمأنينة، فإنها تخفيك العجب العجاب، فتجنب المرغوب منها ومل بها إلى غير المرغوب، فإنها منقادة لك إن شاء الله، مثلها مثل اليد، يسيرها ابن آدم كيفما يشاء، وللغرض الذي تحب النفس وتهواه، في ما يرضي أولي الأمر، ويرضي الله . ولا أخفيك، وقد بلغني عنك، ما جعل الصدر يضيق، والقلب يهف واليد تلف. وها أنا أدعوك إلى الحيطة في البيان، وما هي إلا دعوى ادعيتها لنفسك لا لغيرك، فتروي ما لا يروى، وتقول ما لا يقال، وتهبش في لوك الزور والبهتان، من غير دقة ولا برهان، وما أنت براغب في الطي والكتمان. وما الذي يدفعك أو يمنعك، وأنت تريد إثبات أمر غير ثابت، وتبغي تحصيل ما لا سبيل إلى تحصيله، تاركا لسانك يسرح في محارم الرعية، متصعلكا في أصقاع المقاهي، لثاما مصاصا لشفاه الكؤوس، مبحلقا بصاصا في مقدمات خلق الله ومؤخراتهم من الأقدام إلى الرؤوس، حارثا حرثا حراما في أرض التمييز، فلا تدع منه الملفوظ ، ولا ينجو من هتكك الملحوظ، ولو كان سيبويه حيا لأباح دمك بالإعلال والإبدال، أو الحجاج لقطع منك الأصل والفصل ما خفي منها وما ظهر ويهدلك بالنسب والنسبة. أفلا انتهيت، ومنعت يدك، وألجمتها رصنا في الغدو والرواح، وميزت بين الحلال والحرام والمكروه والمباح ؟ والسلام".

من الصدر الأعظم لمولانا المعز إلى خديمنا الأرضي الدحداح.

- والسلام. قال.
- والسلام. قلت.
- حدث ذلك ذات زمن ليس كالأزمنة، وفي مكان ليس كالأمكنة، ولا يمكن أن يوجد لهما مثيل ولا شبيه.
- تعني زمن المعز والدحداح؟
- أو ترى مثله يمكن أن يقال؟
- لكنك قلت هذا أوان القطاف. وها العين تقطف، واليد تقطف.وماذا بعد؟
- كان الموسم موسما.
- لكن المواسم كثيرة.
- كان موسما غير المواسم.
- المواسم تتشابه. واعلم أن للمواسم أوبة. فأي أوبة تعني أو تريد؟
- تلك التي خِلت ذهابها من دون أوبة.
- ولمه؟
- لأن المسألة تحتاج إلى دراية، مثلها مثل الرياسة والسياسة والكياسة. وهذه يا صاحبي، توجب الدربة، والدربة دُرْبات ودُربات؛ في البدء لا بد لك من تحصيل؛ أي تحصيل حاصل، والحاصل يا صاحبي تستقطره من المحصلات مثل ما تستقطر

الزبيب، ويصير عندك منه، بعد ذلك، ما يجعل النفس تهفو إلى مطلق المزيد، فلا تدركه، ولن تدركه.

- هذا لغو وفذلكة!
- لا. هذه بداية.
- وماذا ستكون النهاية؟
- نعم. ماذا ستكون النهاية ؟ وكيف ستكون؟
- أي نعم. ماذا ستكون ؟ أساعدك؟
- لست في حاجة إلى مساعدة ؟ كان الزمن زمن صيف، وأنت ما بين الحلم واليقظة، تمشي وتطير، تصعد وتهبط، تعي ولا تعي. وأنت على الحال تلك، واليد الصغيرة. نعم ها هي. اليد الصغيرة.. اليد.. الصـ..ـغـ..ـيرة...
- وما لهذه اليد الصغيرة. عرفناها صغيرة، وماذا بعد؟

- أُمسِكُ باليد الصغيرة، واليد تمسك بي. هاك خذْ أَمْسِكْ بهذه اليد. اليد تمسك باليد.تنتقل قشعريرة الخوف من اليد الصغيرة إلى اليد الكبيرة. أُنظرْ أترى هذه اليد؟ أحاول تذكر الزمان والمكان..أتذكر ولا أتذكر. وأنا على الحال التي كنت..لو أن..أتدري يا صاحبي؟ الكلمات تتأبى، تضرب وتضرب معها الحواس. تنتقل العدوى؛ عدوى الإضراب، من اللسان لتشمل الجسد كله. الكل

يرفض. والرفض منه ما هو مستحب محبوب ومنه ما هو مكروه ومنه ما هم مندوب. لأن ما حدث كان بسبب هذه اليد. كان بمكنتي قطعها؛ أن آخذ منجلا. أصدرت أمرا إلى اليد الأخرى بحمل المنجل.. المنجل فقط يا أخي، تخيل لو أني أمرتها بحمل ساطور، ربما كانت ستضرب به رأسي، لأن الرأس مصدر الأوامر، والرأس رئيس الأعضاء، كما قال الجاحظ. أبت .أضربت. قالت: لا يمكن لأخت أن تقطع أختها، ولتمت أنت كمدا أو حزنا، أو لتضيع حتى الضياع نفسه. قالت بدلال وغنج: أنت بالنسبة لي لا شيء. كيف؟ ماذا؟ ولم؟ أضعت الخيط الناظم للأحداث وضعت، ضيعت اليد وضعت. ضعت مددا، وتمزقت إربا إربا. أي تمزق الفؤاد. قالت فؤادك ظل الهوى، وهواي غير هواك. واليد يا رفيق يد أكانت صغيرة أم كبيرة. صرت كالقديد الذي يأبى التخلي عن ملحه، وإن أمضى حولا كاملا ينقع في ماء الزهر أو حتى في ماء الورد. أتدري؟ الخل ؛ أي خل التفاح، ربما كان أقدر على الفعل؛ فعل النقع. لكن اكتشفت بعد لأي وأي لأي، أن ملح القديد لا ينال منه إلا الخزف . جرب . ضع القديد في خابية، واغلق فتحاته بالشمع لموسم وسترى. أُنظر وقل ما ترى، وتذوق وقل ماذا تذوقت؟ واحك. اِحك عن القديد الذي

أضاع الملح، أو ضاع منه ملحه أو انتزع منه، وكذلك كان حالي؛ كمن أضاع ملحه أو انتزع منه.

- من فضلك! ألم تكن تتحدث عن اليد؟ فكيف انتقلت إلى الحديث عن القديد، ما علاقة القديد باليد؟ المقام والمقال يا أخي! أنت تخرق القواعد. أهذا هو الانزياح؟
- القواعد كثيرة. والقواعد حدود. وأنا أضعت الحدود يوم أضعت اليد. أعود فأقول.
- عود على بدء، رحمك الله.
- اليد! وما قصة اليد؟ وما علاقة اليد بالقديد؟ دلني إلى البداية أرشدك إلى الهداية.
- اَخلص لي القول أخلص لك الرأي والنصح.
- أخلصت فاخلص.
- لو كان ابن عبد ربه على قيد الحياة لفك عقده الفريد وشنقك بخيطه.

- آه! تذكرت. قلت الشنق والعقد. كان بالإمكان أن أحتفظ بذكرى، على الأقل بعقد "الخميسة" الذي كان في عنقها. ندمت. لأن هذه اليد أبت تنفيذ أمر بقطع اليد. وماذا كان بوسعي فعله؟ كان ذلك في زمن ولى، وحلم بوسع خلا. في لحظة ما. لم أفهم.

حتى كان ما كان. انفرطت الأصابع، وأنا أنزل أو أهبط سيان. أمشي أو أطير سيان. الجبل ينفتح ويتصاعد منه الغبار. وأنا أجري. نازلا تارة وصاعدا تارة. أمسك بتلك اليد وهي تمسك بي. كانت تبتسم. تخيل اليد تبتسم. أُنظر. ها أنا ذا أبتسم. وماذا بقي لي من الذكرى غير ذكرى اليد التي ضيعت، واليد التي أبت قطع اليد! قالت اليد: ها أنت منحدر إلى قعر المنتهى، والمنتهى لا قعر له، فإن كان من المسلك بد، فالوكد لك أولى، ثم أولى.

- أتدري يا رفيق؟ لا رفقة لي معك بعد اليوم.

مطاردة

إِزدادت دقات قلبه. وقع الأقدام يقترب. أحس بأن الشخص يسرع في خطاه. أسرع بدوره. قبل أن يصل إلى عطفة الزقاق، فكر في أن يبدأ بالركض. خمن أنه من غير الملائم أن يصدر عنه مثل هذا السلوك. وماذا في ذلك إن كان فيه نجاته ونجاة جيبه. عدل عن فكرة الركض. ماذا سيقول المارة؟ لن يشفع له شيبه ولا ضعف بنيته الجسدية. المهم هو النجاة. بدأت المطاردة من ذلك الشباك اللعين. كان فقط يريد أن يتأكد إن كان في حسابه ما يستطيع به جرجرة يوم أو يومين من أيامه المجرورة أصلا والمجرجرة وهي بدورها تجرجره وهكذا. هذا ما كان نواه، وإذا بالظل يظهر. لمح ظلا يقترب. سحب بطاقته التي لفظها الشباك كأنها مصابة بالجذام. رمق الكتابة الحمراء على الشاشة بيأس ، تراجع إلى الخلف. الظل يقترب. أنفاسه يحس بها تكاد تلامس رقبته. رأى ما يشبه يدا أو ظلها تمتد إلى جيبه. خطف البطاقة وأسرع ينعطف متحاشيا النظر إلى الخلف. وكيف يمكنه فعل ذلك، وهل يملك وقتا للنظر أو التفكير أو شيئا من هذا القبيل؟ لمح

الشبح يسرع، أسرع، فكر في الركض ووجد نفسه عاجزا عنه. ازدادت دقات قلبه. فكر.. إن كان المطارد لصا فما عليه إلا أن يصرخ ويستنجد بالمارة. لكن ربما اعتدى عليه أو انتقم منه إن لم يستطع سرقته اليوم فغدا، وغدا لناظره قريب. عدل عن الفكرة حين تذكر أن لاشيء عنده يمكن سرقته أو يستحق حتى التفكير في سرقته. وإن لم يكن المطارد لصا. "أولايلله"! إن لم يكن لصا فمن يكون؟ استعرض سجله العدلي. وجده فارغا بما يمكن أن يجلب عليه مطاردة من النوع الأخير. لكن إذا كان السجل العدلي فارغا، فالسجل اللساني، أما الفكري فمحال. نعم السجل اللساني. ولنفترض أنه يفكر، وذلك مستبعد أصلا، ففيم يمكن أن تنفع أفكاره أو تضر؟ وحتى إن كان لسانه طويلا، وفي ما لا ينفع، لا هو ولا غيره، أو حتى يضر، ولنعتبره يمكن أن يضر. من؟ وماذا يمكن أن..؟ لا يمكن أن يفعلها غيره. ومن غيره يمكن أن يفعلها؟ لن يفعلها أحد سواه. سيكون آخر يومه مع هذه المصيبة! وما المصيبة التي تتحدث عنها بكل هذا الفزع؟ إنه النقال! وما علاقة النقال مع ما أنت فيه؟ لا يمكن أن يوجد مخبر غيره. مهلا. لنفترض ذلك، ألم تقل بأن سجلك...لا. لا. المقصود السجل الذي... ألم يرمق اللص الكتابة الحمراء على الشاشة. وإن فعل! لا، المشكلة ليست في .. أو .. ولكن في..رأى مجموعة من الشباب، فكاد يتخذ قرارا منعه

منه احتمال أن ألا يكون مطارده لصا، لخاف أن يريد الطين بلة، وإلهه الوحل يتمرغ فيه ليل نهار. ثم ماذا لو كانت الجماعة من شركاء المطارد؟

ظهر أمامه ملتقى شارعين. قرر أن يتهالك على أقرب مقعد لمقهى يصادفه. كان يلهث والعرق يتصبب من جبينه. أحس بركبتيه لا تقويان على حمله لمسافة أطول، رأى مقعدا فارغا في زاوية، تهاوى عليه وانحشر بين سنديه. الخطوات تقترب. خاف أن يرفع عينيه فتلتقيان بعيني المطارد. ولماذا لا يفعل؟ لماذا لا يتحدى هذا الخوف الذي نغص عليه هذه الصبيحة؟ قرر أن يفعل. توقفت الخطوات بالقرب منه. قبالته، يقف الشبح . وبتحد لم يعهده فيه، وبشجاعة لم يألفها من نفسه، رفع بصره، فرأى ابتسامة باهتة على وجه شاحب معفر، ويدا نحيلة تمتد نحوه تستحثه صدقة. أكل ما جرى بسببك وتريد صدقة؟ هكذا صرخ في جوفه. امتدت يده إلى جيبه وقد عاد إليه بعض اطمئنانه، وأخذ يقلب بين تلافيفها عما يمكن أن يكون قد سقط منه سهوا، فلمست يداه قطعتين باردتين، تحسس أصغرها ووضعها في اليد الممتدة نحوه خجلا من نفسه، وأشار إلى النادل أن يأتيه بكأس شاي منعنع عله يعيد إليه بعض ما ضاع، وينعش أطرافه المنهوكة، ونفسه المكلومة.

السبايسية والعرايشية

أشهد وأقسم بكل لاهبة لافحة، أنه في ذلك اليوم، وفي تلك الظهيرة، ومع ميلان الظلال قليلا، أني فقط وفقط، كنت أداعب ذلك الشيء، فإذا به يتمزق.. تزق. فأوسعت الخرع، استجابة لغضبة ألمت بي، شررر..أما تلك الحروف المعقوفة التي سالت على جنبات الساحة، تصرخ وتعوي، فلم يكن بيني وبينها أي تعارف مسبق، أو، تقول ربما، اتفاق مسبق. لم يكن بيني وبينها إلا الخير والسلام. واَصْدِق مقولي، إن بدا لك؛ إني شارفت زمن البهتان والصبوات، وحاذيت حذو أصيص حافة نافذة علت تزاويق الطابق العشرين لعمارة محشورة بين اليقين والتخمين، عزلاء خايلتها، متوهما، قبل حين انبلاج ذلك السيل الأحمر الدبق من فجيج إصبع قدمي الذي صار كالبرقوقة المنسوبة إلى "البرتقيز"، وفي ذلك انصراف عن لجين مبارك للخاطر، والشيء الذي تمزق وأنا أداعبه، فبركت أوصوص وأبحلق في فراغ ما سبق لي أن تمليت بشبيه له. تناهى إلى سمعي فحيح "قصبة"، فترنمت وتمايلت، وترنحت من فرط الهوى الجموح، وأنا أرحب بطواع ربة الستة ثقوب، الخماسية الندوب، تزلزل كياني بدءا من الكتفين نزولا إلى القدمين،

فالتهبت اليد هافة لافة نقابة عن عصا أو "مطركَ"، وأزفرت التباريح، وعز الخاطر في الخاطر والخواطر واه ياه! في خاطر القد الممشوق، المخضب بحمرة بلعمان المشقوق.استبطأ الناخ فاستعجلت، واستمرأت الهز الذي انتابني، وكأن صرعا حل بأطرافي واستحلى المقام وأقام فأطال،فيما الضامر يرفع من إيقاع "العرائشية" حينا، ويخفت من أختها "السبايسية" مخمسا تارة، ومربعا أخوات لها، فأجزمت حمالة الثقوب، وأجزلت في صعود مفازات المقامات وهبوط مدارج الوجد، مشرعة أبواب التيه في ملكوت الحضرة البهية لبذخ جنان الوله. وفيما الوجد يغمرني بفيضه، تذكرت الممزق الذي كنت السبب في ضياعه قبيل حين، فأرسلت العبرات. آه! آه! آه! لو كان المجلد قائما مسخنا على مجمر محمر، لأريت هذا الضامر كيف يكون الضرب مرافقا لأنات الفحيح، ولزلزلت العمارة ذات الطوابق العشرين، وجعلت كبارها وصغارها نساء ورجالا يسيحون من على نوافذها وأبوابها كجراد هم فيه اليقين،ودب في أجنحته هوى اخضرار مكين، وجعلتهم يملأون الشارع حذائي، يشرعون تنهداتهم إزائي همازة لمازة طلبا للاستزادة . ولكن ضيعت الدف الذي كنت قبيل آن أصلحه. يا ويح المجلد الذي كان! يا ليته لم يتمزق.

المحتويات